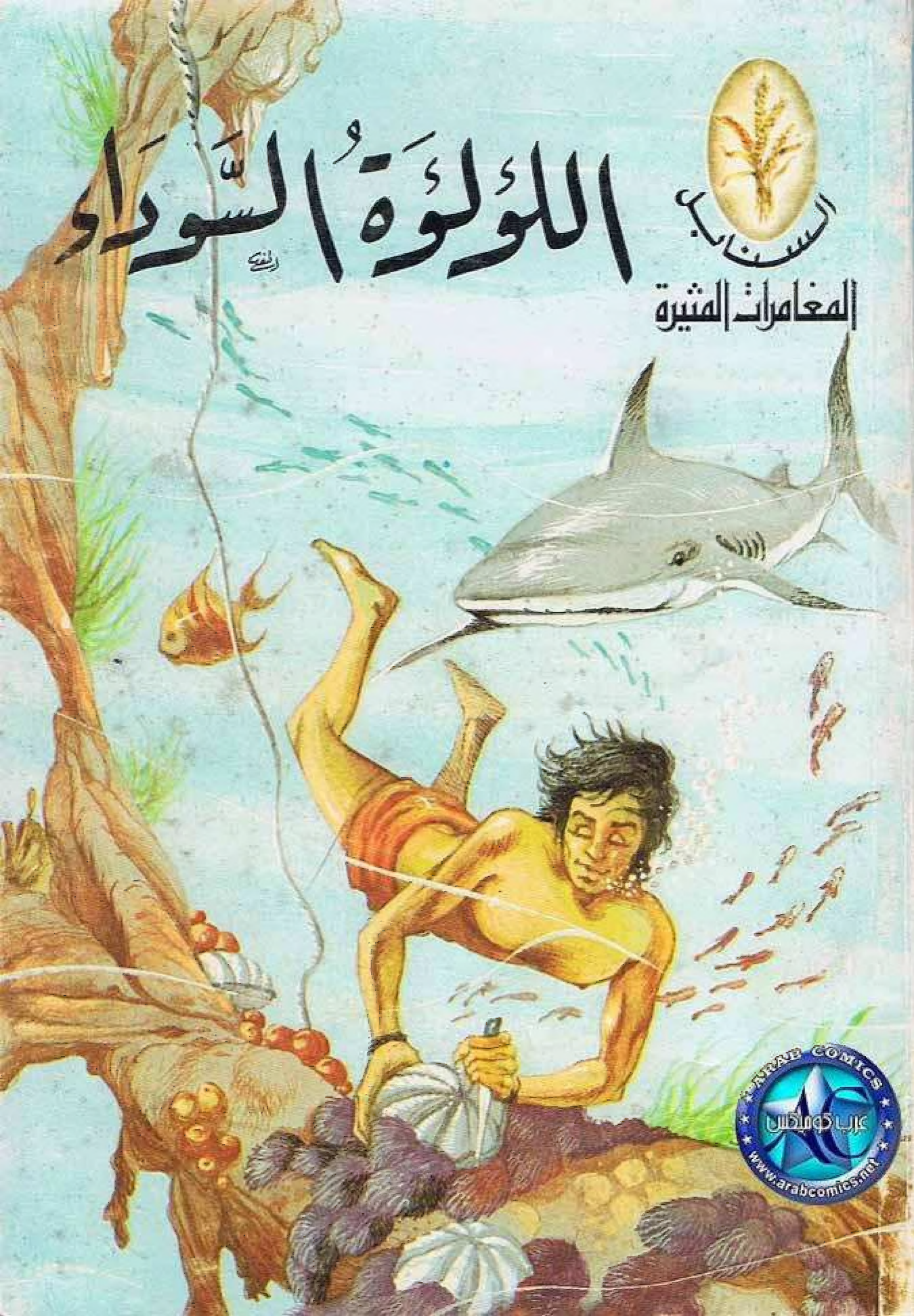
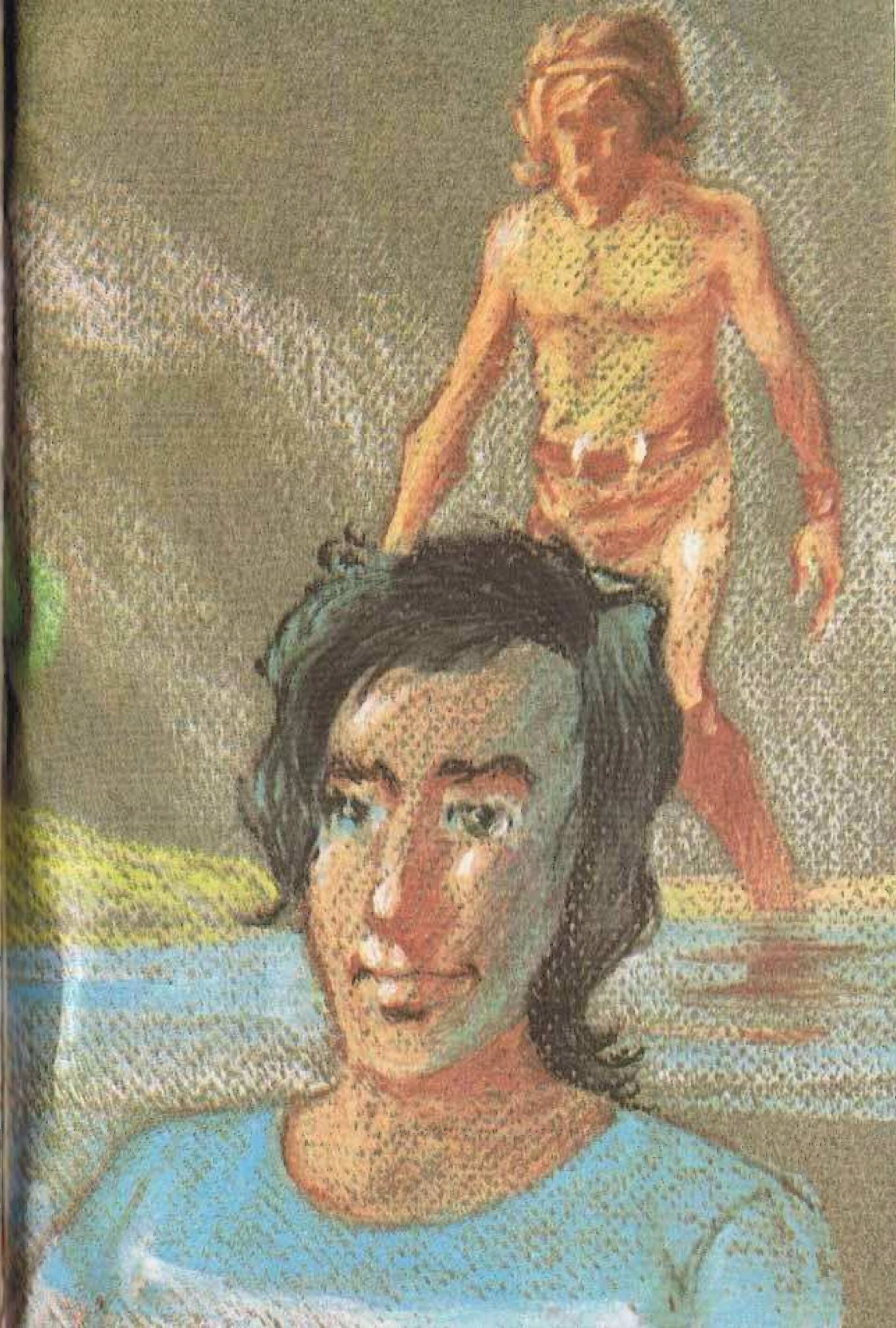


اللولؤة السوداء



المغامرات المثيرة





اللؤلؤة السوداء



تأليف : سكوت أوديل
إعداد : محمود عبد العليم حسان
رسوم : علاء الدين سعد

مكتبة لبنات
بيروت

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة
جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أى جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه ،
أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الثانية

رقم الإيداع : ٢٢٩٧ / ٨٨

الترقيم الدولى : ٩٧٧-١٤٤٥-٥٥-٢ ISBN

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

الفصل الأول

شيطان البحر

كُلُّ سُكَّانِ مَدِينَةِ لَابازِ الْمِكْسِيكِيَّةِ ، وَكُلُّ الْمُقِيمِينَ عَلَى سَاحِلِ شِبْهِ جَزِيرَةِ كاليفورنيا أَوْ فِي جِبَالِهَا بِالْمِكْسِيكِ (بِأَمْرِيكَا الشَّمَالِيَّةِ) ، سَمِعُوا عَنْ مَائِنَا دِيَابُلُو أَوْ شَيْطَانِ الْبَحْرِ - تِلْكَ السَّمَكَةِ الرَّهِيبةِ ! بَلْ إِنَّ كَثِيرِينَ مِنْ سُكَّانِ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ سَمِعُوا عَنْهُ أَيْضًا ؛ وَهَذَا مَا عَلِمْتُهُ مِنَ الزُّوَارِ الْوَافِدِينَ عَلَى الْمَدِينَةِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَمِنْ بَيْنِ كُلِّ هَؤُلَاءِ النَّاسِ لَمْ يَرَهُ سِوَى اثْنَيْنِ فَقَطْ ، أَحَدُهُمَا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ ، وَهُوَ أَنَا : رَامُونُ سَالَازار .

يَدْعِي الْكَثِيرُونَ مِنْ أَهَالِي لَابازِ وَشِبْهِ جَزِيرَةِ كاليفورنيا أَنَّهُمْ شَاهَدُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ . وَعِنْدَمَا يَهْبِطُ اللَّيْلُ يَجْلِسُ الْمُسْتَوْنُ حَوْلَ النَّارِ يَرُوْنَ لِأَحْفَادِهِمْ الْقِصَصَ عَنْ لِقَاءِ إِيَّاهُمْ بِهِ ، وَتَسْمَعُ الْأُمَهَاتُ يُهَدِّدْنَ أَطْفَالَهُنَّ بِأَسْتِدْعَائِهِ إِذَا هُمْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُنَّ .

لَقَدْ بَلَغْتُ الْآنَ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ ، وَلَكِنِّي مَا زِلْتُ أَذْكُرُ كَلِمَاتِ وَالِدَتِي لِي عَنْ شَيْطَانِ الْبَحْرِ الَّذِي يَفُوقُ حَجْمَهُ حَجْمُ أَضْحَمِ سَفِينَةٍ فِي خَلِيجِ لَابازِ ، وَالَّذِي لَهُ سَبْعُ أَغْنِي صَفَرَاءَ ، وَسَبْعَةُ صُفُوفٍ مِنَ الْأَسْنَانِ الْحَادَّةِ كَالسَّكِّينِ وَالَّتِي يَسْتَطِيعُ بِهَا سَحْقُ عِظَامِي كَمَا تُسْحَقُ الْعِصِيُّ .

وَكَانَتْ أُمَهَاتُ أَصْدِقَائِي يَرُوْنَ لَهُمْ مَاذَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَفْعَلَهُ بِهِمْ إِنْ لَمْ يَمْتَثِلُوا لِتَعْلِيمَاتِهِنَّ ، بِالرَّغْمِ مِنْ تَضَارُبِ رِوَايَاتِهِنَّ عَنْ عَدَدِ أَسْنَانِهِ وَأَعْيُنِهِ .

عِنْدَمَا كَانَتْ أُمِّي تُحَدِّثُنِي عَنْ شَيْطَانِ الْبَحْرِ كُنْتُ أَشْعُرُ بِقُشْعْرِيرَةٍ تَسْرِي
فِي جَسَدِي الصَّغِيرِ ، وَيَقِفُ شَعْرُ رَأْسِي مِنَ الْخَوْفِ . وَمَعَ ذَلِكَ كُنْتُ أَوْدُّ أَنْ
أَرَاهُ وَأَعُدُّ أَسْنَانَهُ وَأَعْيُنَهُ حَتَّى أَقِفَ عَلَى حَقِيقَةِ أَمْرِهِ بَعْدَ أَنْ تَضَارَبَتِ
الْحِكَايَاتُ عَنْهُ .

قَالَ جَدِّي إِنَّهُ شَاهَدَ شَيْطَانَ الْبَحْرِ هَذَا بَعَيْنِي رَأْسَهُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ ، وَلَكِنَّهُ ،
كَغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ ، وَرَغْمَ سَعَةِ عِلْمِهِ وَاطِّلَاعِهِ ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُعْطِنِي صُورَةَ
صَادِقَةٍ لَهُ .

وَنُقِلَ عَنِ الْعَمِّ لِينَارِسَ الَّذِي مَاتَ مُنْذُ زَمَنٍ أَنَّهُ قَالَ : « شَاهَدْتُ شَيْطَانَ
الْبَحْرِ الصَّخْمَ هَذَا يَجُولُ فِي الْحُقُولِ وَيُحْرِقُ النَّبَاتَ فِي كُلِّ بُقْعَةٍ حَلَّ بِهَا ،
فَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَعُودَ هَذَا الشَّيْطَانُ إِلَى الْبَحْرِ وَلَا يَبْرَحْهُ ، وَاسْتَجَابَ اللَّهُ
لِدُعَائِي . »

وَلَا أَعْلَمُ إِنْ كَانَ الْعَمُّ لِينَارِسَ قَدْ شَاهَدَهُ ثَانِيَةً أَمْ لَا ، وَلَكِنَّ الَّذِي أَعْلَمُهُ أَنَّ
شَيْطَانَ الْبَحْرِ تَغَيَّرَ أَثْنَاءَ حَيَاتِهِ فِي الْبَحْرِ ، وَأَصْبَحَ مِنْ أَجْمَلِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ
الَّتِي رَأَيْتُهَا . نَعَمْ مِنْ أَجْمَلِ الْكَائِنَاتِ ! وَلَكِنَّهُ ظَلَّ شَرِيرًا كَمَا كَانَ عِنْدَمَا رَأَاهُ
الْعَمُّ لِينَارِسَ مُنْذُ مِئَةِ سَنَةٍ .

مَرَّتِ السَّنَوَاتُ وَتَحَقَّقَ الْحُلُمُ ، وَشَاهَدْتُ بِنَفْسِي شَيْطَانَ الْبَحْرِ الَّذِي
شَكَّكْتُ فِي وُجُودِهِ ، بَلْ وَخُضْتُ مَعَهُ مَعْرَكَةً غَنِيَةً أَنَا وَغَاسِبَرُ رُويز .

وَقَبْلَ أَنْ أُحْكِيَ لَكُمْ قِصَّتِي مَعَ هَذَا الشَّيْطَانِ ، سَأُرَوِّي لَكُمْ أَوَّلًا قِصَّةَ
لَوْلَوَةِ السَّمَاءِ .

الفصل الثاني

كَيْفَ أَصْبَحْتُ شَرِيكًا

يَعِيشُ الْمَحَارُّ عَلَى الصُّخُورِ فِي قَاعِ الْبَحْرِ ، حَاوِيًا بِدَاخِلِهِ اللَّوْلُؤَ ، وَهِيَ
حَبَّاتٌ جَمِيلَةٌ كُرْوِيَّةُ الشَّكْلِ . وَلِلْحُصُولِ عَلَيْهَا يَغُوصُ الْعَوَاصِمُونَ إِلَى الْقَاعِ
وَيَسْتَخْرِجُونَ الْمَحَارَّ ، وَيَسْتَخْدِمُونَ فِي عَمَلِهِمْ هَذَا سُفُنًا خَاصَّةً يُسَمُّونَهَا
سُفْنَ صَيْدِ اللَّوْلُؤِ .

كَانَ أَبِي بِلَاسَ سَالَا زَارَ أَشْهَرَ تُجَّارِ اللَّوْلُؤِ فِي بَلَدِنَا . وَقَدْ عُرِفَ بِحُسْنِ
تَعَامُلِهِ مَعَ الصَّيَّادِينَ الَّذِينَ يَبِيعُونَهُ صَيْدَهُمْ ، وَمَعَ الْمُشْتَرِينَ الَّذِينَ يَقْدُونَ إِلَيْهِ
مِنْ كُلِّ مَكَانٍ .

وَفِي شَهْرِ يُولِيهِ مِنَ الْعَامِ الْماضِي ، وَيَوْمَ عِيدِ مِيلَادِي السَّادِسَ عَشَرَ ،
جَعَلَنِي أَبِي شَرِيكًا لَهُ فِي تِجَارَتِهِ ، وَثَبَّتَ عَلَى بَابِ مَكْتَبِهِ لَافِتَةً تَحْمِلُ هَذَا
الْمَعْنَى . وَدَعَانِي إِلَى مَكْتَبِهِ ، وَأَشَارَ إِلَى الْلاِفِتَةِ ، وَقَالَ مُبْتَهَجًا :

« لَقَدْ أَصْبَحْنَا يَا بَنِي مِنَ الْيَوْمِ شَرِيكَيْنِ ، وَسَنَبِيعُ ضِعْفَ مَا كُنْتُ أَبِيعُ أَنَا
وَأَخُذِي ، وَسَوْفَ تَزْدَهَرُ تِجَارَتُنَا وَتَتَسَّعُ . عَلَيْكَ الْآنَ أَنْ تَرْفَعَ هَامَتَكَ ،
وَتُرْتَدِّي مَلَابِسَ الْكِبَارِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَلَابِسَ تُظْهِرُ سَاعِدَيْكَ النَّحِيلَتَيْنِ . »
كَانَ جِسْمِي ضَعِيلًا بِالنَّسَبَةِ لِعُمُرِي ، وَكَانَ أَبِي يَوَدُّ لَوْ كُنْتُ مِثْلَهُ ضَخْمَ
الجِسْمِ .

وقادني أبي إلى حُجرة مَكْتَبِهِ كَيْ يُرِينِي كَيْفَ تُفْتَحُ الْخِزَانَةُ الْحَدِيدِيَّةُ الَّتِي
يَحْتَفِظُ فِيهَا بِاللُّؤْلُؤِ . وَأَخْرَجَ الصَّنَادِيقَ وَكَشَفَ لِي عَمَّا بَدَاخِلِهَا مِنْ لُؤْلُؤٍ
مُخْتَلِفِ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَحْجَامِ .

قال لي : « في الْعَدِّ يَارَامُونَ سَاعَلُمُكَ كَيْفَ تَرِنُ اللَّؤْلُؤُ . هَذَا شَيْءٌ هَامٌّ .
فَاللُّؤْلُؤَةُ الْكَبِيرَةُ تُسَاوِي الْكَثِيرَ ، لَوْ كَانَتْ جَمِيلَةً اللَّوْنِ وَالشَّكْلِ ؛ وَتُنْخَفِضُ
قِيَمَتُهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ .

« إِنَّ وَزْنَ الذَّهَبِ وَالْجَوَاهِرِ وَاللَّالِئِ يُقَاسُ بِالْقَرَارِيطِ ، وَالْقَرَارِيطُ يُسَاوِي
خُمْسَ غِرَامٍ ، وَسَوْفَ أُبَيِّنُ لَكَ أَشْكَالَ اللَّؤْلُؤِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَأُرِيكَ كَيْفَ تَضَعُ
اللُّؤْلُؤَةَ أَمَامَ الضَّوِّ ، وَتَحْكُمُ عَلَيْهَا بِالْجُودَةِ أَوْ الرَّدَاةِ ، وَعِنْدَمَا تُكْبِرُ مِثْلِي
سَوْفَ تُصْبِحُ مِنْ أَشْهَرِ تِجَارِ اللَّؤْلُؤِ فِي الْعَالَمِ ، وَسَوْفَ تُعَلِّمُ ابْنَكَ مَا
عَلَّمْتُكَ . »

كَانَ هَذَا الْيَوْمُ مِنْ أَسْعَدِ أَيَّامِ حَيَاتِي ، وَلَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَطُولَ الْوَقْتُ قَبْلَ
أَنْ يَسْمَحَ لِي وَالِدِي بِالْخُرُوجِ مَعَ سُفْنِ صَيْدِ اللَّؤْلُؤِ ، وَهَذَا مَا كُنْتُ أَحْلُمُ بِهِ
دَائِمًا . كَانَ وَالِدِي يَقُولُ لِي : « سَوْفَ تُخْرُجُ مَعَ الْسُّفْنِ عِنْدَمَا تَبْلُغَ السَّادِسَةَ
عَشْرَةَ ، وَسَاعَلُمُكَ كَيْفَ تُعَوِّضُ فِي الْمَاءِ . »

وَقَدْ بَلَغْتُ هَذِهِ السَّنَ الْآنَ ، وَبَقِيَ أَنْ أَعْلَمَ أَشْيَاءَ قَبْلَ أَنْ أَغُوصَ بَحْثًا عَنِ
اللُّؤْلُؤِ .

وَذَاتَ يَوْمٍ شَاهَدْتُ مِنْ نَافِذَةٍ صَغِيرَةٍ فِي حُجْرَةِ الْمَكْتَبِ سُفْنًا خُمْسَ

مُعَدَّةً لِلإِبْحَارِ . وَسَمِعْتُ أَبِي يُصْدِرُ تَعْلِيمَاتِهِ لِإِجَالِهِ بِالْأَسْتِعْدَادِ لِلرَّحِيلِ
خِلَالَ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ ، وَكُنْتُ مُسْتَعِدًّا تَمَامًا لِلإِبْحَارِ مَعَهُمْ لَوْ سَمَحَ لِي
بِذَلِكَ .

كَانَ وَاجِبِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنْ أَفْحَصَ بَعْضَ اللَّؤْلُؤِ ، وَأَزِنَهُ وَأُسْجِلَ
مُوصَفَاتِهِ فِي سِجِلٍّ خَاصٍّ . وَبَدَأْتُ بِأَكْبَرِ اللَّالِئِ حَجْمًا ، وَلَكِنِّهَا لَمْ تَكُنْ
مُسْتَدِيرَةً تَمَامًا ، وَبَدَا بَدَاخِلُهَا بَعْضُ الشَّوَائِبِ فَدَوَّنتُ بِالسَّجْلِ : « اللَّؤْلُؤَةُ
رَقْمُ (١) تَرِنُ ثَمَانِيَةَ قَرَارِيطَ وَسَبْعَةَ أَعْشَارِ الْقَرَارِيطِ ، رَدِيئةُ اللَّوْنِ . »

وَفَحَصْتُ الثَّانِيَةَ وَكَتَبْتُ : « اللَّؤْلُؤَةُ رَقْمُ (٢) تَرِنُ ثَلَاثَةَ قَرَارِيطَ ،
مُسْتَدِيرَةٌ وَلَوْنُهَا جَمِيلٌ . » وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَزِنُ اللَّؤْلُؤَةَ السَّابِعَةَ سَمِعْتُ وَقَعَ
خُطَوَاتٍ ، ثُمَّ انْفَتَحَ أَبَابُ الْحَدِيدِيِّ لِيَدْخُلَ أَبِي الْعَمَلَّاقُ بِسَخْنَتِهِ السَّمَرَاءِ



الَّتِي اكْتَسَبَهَا مِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ وَهَوَاءِ الْبَحْرِ .

تَقَدَّمَ أَبِي نَحْوِي وَهَظَرَ فِي السَّجَلِ الَّذِي أَدَوْنَ فِيهِ مُلَاحَظَاتِي وَقَالَ :
« أَنْتَ سَرِيعٌ فِي عَمَلِكَ . لَقَدْ انْتَهَيْتَ مِنْ فَحْصِ سِتِّ لَالِيٍّ فِي فِتْرَةٍ وَجِيزَةٍ
جِدًّا . » ثُمَّ التَّقَطَ إِحْدَاهَا قَائِلًا : « تُرَى مَاذَا كَتَبْتَ عَنْ هَذِهِ ؟ »

قُلْتُ : « كَتَبْتُ إِنَّهَا مُسْتَدِيرَةٌ ، تَرْنُ ثَلَاثَةَ قَرَارِيطَ وَنِصْفَ الْقِرَاطِ ،
وَلَوْئِهَا لَا بَأْسَ بِهِ . »

قَالَ : « لَا بَأْسَ بِهِ ! هَذِهِ لَوْلُؤَةٌ تَلِيْقُ بِمِلْكِكَ . »

قُلْتُ : « بِمِلْكِكَ فَقِيرٌ . إِنَّكَ لَوْ وَضَعْتَهَا أَمَامَ الْضَوْءِ لَشَاهَدْتَ بُقْعَةً دَاكِئَةً
بِدَاخِلِهَا . »

قَالَ : « هَذِهِ يُمَكِّنُ إِزَالَتَهَا . »

قُلْتُ : « أَشْكُ فِي ذَلِكَ يَا أَبِي . »

فَابْتَسَمَ وَقَالَ : « وَأَنَا كَذَلِكَ ! إِنَّكَ سَرِيعُ التَّعَلُّمِ يَا بُنَيَّ ! وَبِمَرُورِ الْوَقْتِ
سَتَعْرِفُ أَكْثَرَ مِمَّا أَعْرِفُ . »

قُلْتُ ، وَلَمْ يَنْقُ عَلَى إِقْلَاعِ السُّفْنِ سِوَى سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ : « إِنِّي أَرْغُبُ
يَا أَبِي فِي مُرَافَقَتِكُمْ الْيَوْمَ . لَقَدْ سَبَقَ أَنْ وَعَدْتَنِي بِذَلِكَ عِنْدَمَا أَبْلُغُ السَّادِسَةَ
عَشْرَةَ ، وَهَآنَذَا قَدْ بَلَغْتُهَا . »

أَجَابَ وَالِدِي : « لَوْ رَافَقْتَنَا لَكُنَّا - أَنَا وَأَنْتَ - مَعًا فِي الْبَحْرِ ، وَرُبَّمَا

تَهْبُ عَاصِفَةٌ فَتَوْدِي بِالْأَبِ وَالْأَبْنِ مَعًا ، وَتَنْتَهِي أُسْرَةً سَالَا زَارَ . »

قُلْتُ : « يَا سَيِّدِي ، إِنَّهُ يَوْمٌ جَمِيلٌ غَيْرُ عَاصِيفٍ . »

قَالَ : « الْيَوْمَ .. وَلَكِنْ مَاذَا عَنِ الْغَدِ ؟ وَمَاذَا عَنِ شَيْطَانِ الْبَحْرِ ؟ »

قُلْتُ : « إِنِّي أَحْمِلُ السَّكِينِ الَّذِي أُعْطَانِيهِ جَدِّي . وَلَوْ أَخَذْتَنِي مَعَكُمْ
فَسَاعَاوَيْتُكُمْ فِي إِخْرَاجِ السَّلَالِ مِنَ السَّمَاءِ عِنْدَمَا يَغُوصُ الرِّجَالُ . »

قَالَ وَالِدِي ضَاحِكًا : « إِنَّ سِكِّينَكَ هَذَا صَغِيرٌ وَلَا يَصْلُحُ لِمُوَاجَهَةِ
سَمَكَةٍ مِنْ نَوْعِ شَيْطَانِ الْبَحْرِ ! إِنَّهُ خَطِرٌ جِدًّا ! »

قُلْتُ : « نَسِيتُ يَا أَبِي أَنْ أُخْبِرَكَ أَنَّ زَوْجَةَ غُولِيْنَا جَاءَتْ فِي الصَّبَاحِ
لِتُخْبِرَكَ أَنَّهُ مَرِيضٌ وَلَنْ يَتِمَكَّنَ مِنْ مُرَافَقَتِكُمْ الْيَوْمَ . وَأَنَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَحُلَّ
مَحَلَّهُ . »

نَظَرَ أَبِي إِلَى السَّمَاءِ وَإِلَى أَوْرَاقِ الْأَشْجَارِ السَّائِكَةِ وَقَدْ تَغَيَّرَ وَجْهُهُ ، ثُمَّ
حَمَلَ اللَّوْلُؤَ وَأَعَادَهُ إِلَى مَكَانِهِ وَقَالَ : « اتَّبِعْنِي يَا رَامُون . »

كَانَتْ الشَّمْسُ تَمِيلُ نَحْوَ الْمَغِيبِ وَنَحْنُ فِي طَرِيقِنَا إِلَى الشَّاطِئِ .

قَالَ وَالِدِي : « هَلْ أُخْبِرْتُكَ وَالِدَتُكَ ؟ لَا ! سَأُرْسِلُ مَنْ يُخْبِرُهَا ، لِأَنَّكَ
لَوْ ذَهَبْتَ لَضَاعَ وَقْتُ نَحْنُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ ، وَسَوْفَ تُعْتَزُّضُ عَلَى مَجِيئِكَ
مَعَنَا . »

الفصل الثالث

الإشيلي

كَانَتْ هُنَاكَ خَمْسُ سُفُنٍ ، تَحْمِلُ كُلُّ مِنْهَا أَرْبَعَةَ رِجَالٍ أَوْ خَمْسَةً ،
وَكَانَ عَلَى سَفِينَتِنَا أَبِي وَأَنَا وَرَجُلٌ هِنْدِيُّ وَشَابٌّ يُدْعَى غَاسِبِرُ رُويز ، قَالَ إِنَّهُ
جَاءَ مِنْ مَدِينَةِ إِشْبِيلِيَّةَ فَلَقَبْنَاهُ بِالْإِشْبِيلِيِّ .

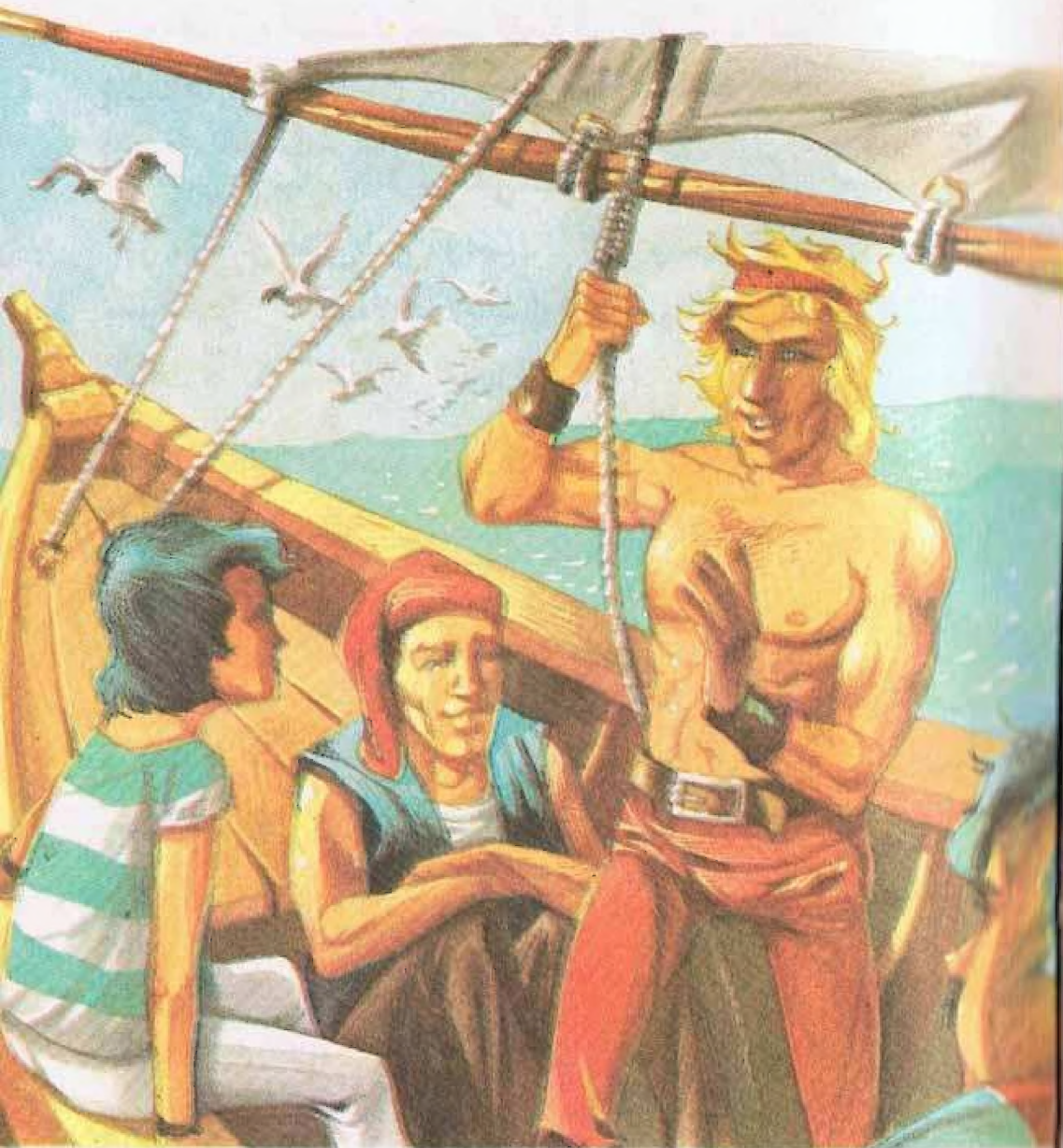
كَانَ غَاسِبِرُ طَوِيلَ الْقَامَةِ قَوِيَّ الْبَنِيَّةِ ، ذَا شَعْرٍ ذَهَبِيٍّ كَثِيفٍ ، وَعَيْنَيْنِ
زَرْقَاوَيْنِ جَمِيلَتَيْنِ . كَانَ حَسَنَ الْمَظْهَرِ ، بَذِيءَ اللِّسَانِ ، جَائِرًا فِي أَحْكَامِهِ
عَلَى غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ .

كَانَ صَيَّادَ لُؤْلُؤٍ مَاهِرًا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْقَى تَحْتَ الْمَاءِ ثَلَاثَ دَقَائِقَ وَأَحْيَانًا
أَرْبَعًا ، عَلَى حِينٍ لَا يَسْتَطِيعُ غَيْرُهُ الْبَقَاءَ تَحْتَ الْمَاءِ أَكْثَرَ مِنْ دَقِيقَتَيْنِ فَقَطْ .
وَكَثِيرًا مَا قَصَّ عَلَيْنَا الْقِصَصَ الرَّائِعَةَ عَنْ أَعْمَالِهِ فِي إِسْبَانِيَا وَغَيْرِهَا مِنْ دُولِ
الْعَالَمِ حَتَّى إِنَّهُ سَجَّلَ بِالْوَشْمِ عَلَى جَسَدِهِ رُسُومًا تُصَوِّرُ مَعَارِكَهُ مَعَ الدَّبَابَةِ
وغيرها مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُفْتَرَسَةِ .

مَا كَادَتْ السُّفُنُ تُبْجَرُ حَتَّى بَدَأَ الْإِشْبِيلِيُّ يَرْوِي قِصَّةَ لُؤْلُؤَةِ الْكَبَرِ مِنْ بَيْضَةِ
الدَّجَاجَةِ ، وَجَدَهَا فِي الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ .

سَأَلَتْهُ : « مَاذَا فَعَلْتَ بِهَا ؟ »

أَجَابَ : « بَعْتُهَا لِلشَّاهِ ، مَلِكِ فَارِسَ ، ثُمَّ اشْتَرَيْتُ سُفُنًا لِصَيْدِ الْلُؤْلُؤِ ،



كُنْتُ قَبْلَ أَنْ أَصْبَحَ شَرِيكًا لِوَالِدِي ، أَشَاهِدُ إِلا شَيْئًا عَلَى الشَّاطِئِ
وَحَوْلَهُ جَمْعٌ مِنَ النَّاسِ يُصْعِقُونَ لِقِصَصِهِ ، وَكُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّهُ يُوجِّهُ حَدِيثَهُ إِلَيَّ
أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِي .

وَذَاتَ يَوْمٍ أَحْسَسْتُ بِكَذِبِ الْقِصَّةِ الَّتِي كَانَ يَرَوِيهَا فَسَأَلْتُهُ : « هَلْ هَذِهِ
قِصَّةٌ وَاقِعِيَّةٌ ؟ »

أَجَابَنِي غَاضِبًا : « أَلَا تُصَدِّقُنِي ؟ أَنْتَ ابْنُ رَجُلٍ ثَرِيٍّ ، تَعِيشُ فِي بَيْتٍ
كَبِيرٍ ، وَتَأْكُلُ أَفْضَلَ طَعَامٍ ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تَعْمَلْ فِي حَيَاتِكَ سِوَى الْقَلِيلِ ، وَلَنْ
تَفْعَلَ الْكَثِيرَ . أَمَّا أَنَا فَقَدْ قُمْتُ بِأَعْمَالٍ كَثِيرَةٍ ، وَلَا أُرَوِي عَنْهَا إِلَّا الصَّدَقَ .
وَعَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ حَذِرًا فِي حَدِيثِكَ مَعِي . »

غَادَرْتُ الْمَكَانَ غَاضِبًا ، وَارَدْتُ أَنْ أَعُودَ إِلَيْهِ وَأُقَاتِلَهُ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ أَقْوَى
وَأكْبَرَ مِنِّي . وَخَشِيتُ أَنْ يَغْضَبَ وَالِدِي إِذَا مَا تَشَاجَرْتُ فِي مَكَانٍ عَامٍّ ،
وَلَكِنِّي أَخْبَرْتُهُ بِمَا حَدَثَ .

فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، بَيْنَمَا كَانَتِ السُّفُنُ تَشُقُّ طَرِيقَهَا فِي الْبَحْرِ ، جَلَسَ إِلا شَيْئًا
يَتَحَدَّثُ عَنْ شَجَاعَتِهِ ، وَيُرَوِي كَيْفَ تَمَكَّنَ مِنْ إِنْقَاذِ رِجَالِهِ مِنَ الْعَاصِفَةِ ،
مُحَاوِلًا إِشْرَاكِي فِي الْحَدِيثِ ، وَلَكِنِّي أَصْغَيْتُ وَالتَزَمْتُ الصَّمْتَ .

عِنْدَ طُلُوعِ النَّهَارِ وَصَلْنَا إِلَى مَهْدِ الْمَحَارِ فِي قَاعِ الْبَحْرِ حَيْثُ يُوجَدُ
الْلُّؤْلُؤُ . وَدَرَّبَنِي أَبِي عَلَى طَرِيقَةِ انْتِشَالِ السَّلَّةِ بَعْدَ أَنْ تَمْتَلِئَ بِالْمَحَارِ ، وَعَلَى
تَفْرِيعِهَا . ثُمَّ تَنَاوَلَ حَجَرًا كَبِيرًا يُسَمَّى حَجَرَ الْعُوصِ ، وَقَدْ رُبِطَ بِطَرَفِ

حَبْلِ ، وَثَبَّتَ طَرَفَ الْحَبْلِ الْآخَرَ بِالسَّفِينَةِ وَالْقَى الْحَجَرَ فِي الْمَاءِ وَحَمَلَ
السَّلَّةَ الْمَرْبُوطَةَ بِحَبْلِ وَقَفَزَ إِلَى الْمَاءِ ، وَغَاصَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْقَاعِ . كُنْتُ
أَرَاهُ مِنْ خِلَالِ الْمَاءِ الصَّافِي وَهُوَ يَنْتَزِعُ الْمَحَارَ مِنْ فَوْقِ الصُّخُورِ بِسِكِّينِهِ
وَيَضَعُهُ فِي سَلَّتِهِ .

وَعِنْدَمَا امْتَلَأَتْ جَذَبَ الْحَبْلَ ، فَأَخْرَجْتُ السَّلَّةَ ثُمَّ صَعِدَ هُوَ إِلَى
السَّفِينَةِ . وَكُنْتُ قَدْ وَضَعْتُ الْمَحَارَ فِي مَكَانِهِ وَأَخْرَجْتُ حَجَرَ الْعُوصِ
اسْتِعْدَادًا لِلْمَرَّةِ التَّالِيَةِ .

كَانَ إِلا شَيْئًا قَدْ غَاصَ إِلَى الْقَاعِ قَبْلَ أَبِي ، وَلَمْ يَطْفُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ غَاصَ أَبِي
ثَانِيَةً ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ قَائِلًا : « كَيْفَ يَسِيرُ الْعَمَلُ ؟ »

أَجَبْتُ : « إِنِّي أَتَعَلَّمُ . »

قَالَ : « لَيْسَ هُنَاكَ الْكَثِيرُ لِتَتَعَلَّمَهُ . إِنَّكَ تَجْذِبُ الْحَبْلَ لِتُخْرِجَ السَّلَّةَ ،
وَتَجْذِبُ حَجَرَ الْعُوصِ ، ثُمَّ تَضَعُ الْمَحَارَ فِي مَكَانِهِ ، وَتَنْتَظِرُ قَلِيلًا ، ثُمَّ تَعُودُ
إِلَى الْقِيَامِ بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ مَرَّةً أُخْرَى . »

قُلْتُ : « إِنَّ الْعُوصَ أَكْثَرُ مُنْعَةً . »

فَقَالَ : « إِنَّ الْعُوصَ أَكْثَرُ مُنْعَةً ، وَلَكِنَّهُ أَكْثَرُ خَطَرًا ، وَمِنْ الْأَسْلِمِ لَكَ أَنْ
تَبْقَى بِالْقَارِبِ . »

كَانَ كُلَّمَا خَرَجَ مِنَ الْمَاءِ لِيَسْتَنْشِقَ الْهَوَاءَ ، فِي فِتْرَةٍ بَعْدَ الظُّهْرِ ، يُحَذِّرُنِي



مِنْ أَنْ تَشْتَبِكَ قَدَمَايَ فِي الْحَبْلِ ، وَمِنْ أَنْ أَسْقُطَ فِي الْمَاءِ .

قَالَ أَبِي عَنْهُ إِنَّهُ مُثِيرٌ لِلْمَتَاعِبِ ، وَلَكِنَّهُ أَمْهَرُ غَوَّاصِينَا .

حَلَّ الظَّلَامُ ، وَكَانَتْ السُّفُنُ قَدْ امْتَلَأَتْ بِالْمَحَارِ ، فَبَدَأْنَا رِحْلَةَ الْعَوْدَةِ .

وَعِنْدَمَا بَزَغَ الْقَمَرُ وَتَبَدَّدَتْ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ ، بَدَأَ الْإِشْبِيلِيُّ يَقْصُصُ مِنْ جَدِيدِ قِصَّتِهِ عَنِ الْوُلُوءَةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي وَجَدَهَا فِي الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ . وَجَلَسْتُ أَسْتَمِعُ إِلَيْهِ وَأَحْلُقُ فِي عَالَمِ الْأَحْلَامِ .

حَلَمْتُ أَنِّي كُنْتُ بِقَارِبٍ فِي خَلِيجِ سِرِّيٍّ فِي مَكَانٍ مَا بِأَحَدِ الْبَحَارِ ، وَأَخَذْتُ السَّلَّةَ وَحَجَرَ الْغَوْصِ وَهَبَطْتُ إِلَى الْقَاعِ ، ثُمَّ مَلَأْتُ السَّلَّةَ بِالْمَحَارِ وَعُدْتُ إِلَى الْقَارِبِ . أَخْرَجْتُ السَّلَّةَ وَأَخَذْتُ أَفْتَحُ الْمَحَارَ وَاحِدَةً بَعْدَ الْأُخْرَى . لَا شَيْءَ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا وَاحِدَةٌ عِنْدَمَا فَتَحْتُهَا وَجَدْتُ بِدَاخِلِهَا لُؤْلُؤَةً أَكْبَرَ مِنْ قَبْضَةِ الْيَدِ تُضِيءُ كَمَا لَوْ كَانَ بِدَاخِلِهَا نَوْرٌ : إِنَّهَا لُؤْلُؤَةُ السَّمَاءِ .

تَوَقَّفَ الْإِشْبِيلِيُّ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ عَنِ الْكَلَامِ ، وَنَهَضَ وَاقْفَا وَأَشَارَ بِيَدِهِ : « أَنْظَرُوا ! شَيْطَانُ الْبَحْرِ ! شَيْطَانُ الْبَحْرِ ! » فَقَفَزْتُ مِنْ مَكَانِي ، وَعِنْدَمَا اِعْتَلَتْ السُّفِينَةُ مَوْجَةً ، شَاهَدْتُ جِسْمًا فَضِيًّا قَدْ بَرَزَ نِصْفُهُ مِنَ الْمَاءِ عَلَى مَسَافَةِ أَرْبَعِمِئَةِ مِثْرٍ تَقْرِيْبًا .

إِنَّ مَنْظَرَ شَيْطَانِ الْبَحْرِ مُخِيفٌ . وَهُنَاكَ نَوْعٌ صَغِيرٌ مِنْهُ لَا يَزِيدُ عَنْ عَشْرِ أَقْدَامٍ بِمَا فِيهِ عَرَضُ الْجَنَاحَيْنِ ، وَهُنَاكَ مَا يَبْلُغُ ضِعْفَ ذَلِكَ .

وَقَدْ شَهِدْتُ شَيْطَانِ الْبَحْرِ يَتَسَبَّحُ لِرَأْسِ رَجُلٍ ، وَلَهُ مَا يُشَبِّهُ الذَّرَاعَيْنِ يَدْفَعُ بِهِمَا

الْعُلَامَ دَاخِلَ قَمِيهِ . وَتَتَّبِعُ شَيْطَانُ الْبَحْرِ سَمَكَةً صَغِيرَةً تَدْخُلُ قَمَهُ وَتَخْرُجُ مِنْهُ كَمَا تُنْظَفُ أَسْنَانُهُ مِنْ بَقَايَا الطَّعَامِ .

ارْتَعَبَ الْهِنْدِيُّ ، وَخَرَّ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَبَدَأَ يُصَلِّي . وَصَاحَ الْإِشْبِيلِيُّ مِنْ جَدِيدٍ : « شَيْطَانُ الْبَحْرِ ! »

قَالَ أَبِي : « كَلَّا ! لَيْسَ هَذَا هُوَ الشَّيْطَانُ . إِنَّ الشَّيْطَانَ أَكْبَرَ بِكَثِيرٍ ، وَلَقَدْ شَاهَدْتُهُ بِنَفْسِي . »

أَيْقَنْتُ أَنَّ الْإِشْبِيلِيَّ كَانَ يُحَاوِلُ أَنْ يُخِيفَ الْهِنْدِيَّ ، فَمَا كَانَ مِنْ أَبِي إِلَّا أَنْ

صَعِدَ إِلَى حَيْثُ يَقِفُ الْإِشْبِيلِيُّ ، ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ حَتَّى يَسْمَعَ الْهِنْدِيُّ :
« لَيْسَ هَذَا هُوَ الشَّيْطَانُ ، وَلَا حَتَّى أُخْتُهُ الصُّغْرَى . »

فِي طَرِيقِنَا إِلَى الْمَنْزِلِ ، وَفِي ضَوْءِ الْقَمَرِ ، قَالَ لِي أَبِي : « تَعَامَلْ مَعَ
الْإِشْبِيلِيِّ بِحَذَرٍ . اسْتَمِعْ إِلَى قِصَصِهِ وَتَظَاهَرِ بِأَنَّكَ تُصَدِّقُهَا ، فَهُوَ رَجُلٌ
خَطِيرٌ . إِنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ طَوَالَ حَيَاتِهِ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ وَلَا إِلَى الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ ، وَلَكِنَّ
مَعَارِكَهَ فِي كَالِيكَانَ - وَهُوَ مَكَانٌ قَرِيبٌ مِنَّا - عَدِيدَةٌ ، وَقَدْ قَتَلَ رَجُلًا فِي
إِحْدَاهَا . »

فِي الطَّرِيقِ عَاوَدَنِي التَّفَكُّيرُ فِي حُلْمِي ، وَفِي اللَّوْلُوءَةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي وَجَدْتُهَا ،
وَفِي دَهْشَةِ الْإِشْبِيلِيِّ الَّتِي أَبْدَاهَا عِنْدَمَا تَصَوَّرْتُهُ رَأَاهَا .

الفصل الرابع

سُوْتُو لُوزُون يُخْضِرُ لُؤْلُؤَةً سَوْدَاءَ

بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ شَاهَدْتُ مِنَ النَّافِذَةِ قَارِبًا أَحْمَرَ قَادِمًا بِسُرْعَةٍ إِلَى لَابَازَ . كَانَ
قَارِبَ رَجُلٍ هِنْدِيٍّ يُدْعَى سُوْتُو لُوزُون .

سُرَرْتُ لِرُؤْيَةِ لُوزُون الْعَجُوزِ ، فَقَدْ كَانَ يَبِيعُ اللَّؤْلُؤَ لِأَبِي مُنْذُ سَنَوَاتٍ .
وَهُوَ يُخْضِرُ كُلَّ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ تَقْرِيْبًا ، وَلَا يَجْلُبُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ أَكْثَرَ مِنْ لُؤْلُوءَةٍ
وَاحِدَةٍ ثَمِينَةٍ . وَبَعْدَ أَنْ عَمِلْتُ مَعَ أَبِي أَخْضَرَ لُؤْلُوءَةً سَوْدَاءَ كَبِيرَةً وَدِدْتُ لَوْ
أَنَّ أَخْضَرَ مِثْلَهَا الْيَوْمَ ؛ لِأَنَّنَا لَمْ نَجِدْ دَاخِلَ كَمِّيَةِ الْمَحَارِ الْأَخِيرَةِ سِوَى حَبَّاتِ
لُؤْلُؤَةٍ صَغِيرَةٍ لَيْسَ بَيْنَهَا وَاحِدَةٌ ذَاتُ قِيَمَةٍ .

عِنْدَمَا وَصَلَ لُوزُون إِلَى الْبَابِ دَعَوْتُهُ إِلَى الدُّخُولِ وَالْجُلُوسِ .

قَالَ : « أَشْكُرُكَ ، وَلَكِنِّي أَفْضَلُ الْوُقُوفِ . لَقَدْ سَافَرْتُ طَوَالَ اللَّيْلِ ،
(وَفَرَرْتُ بِسُفُنِكُمْ فِي الصَّبَاحِ بِالْقُرْبِ مِنْ مَالِدَرَادُو . »

قُلْتُ : « إِنَّهَا فِي طَرِيقِهَا إِلَى جُزْرِ سِيرَالْفُو . »

سَأَلَنِي : « أَلَيْسَتْ الْمِنْطَقَةُ هُنَا صَالِحَةً لِلصَّيْدِ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « بَلَى ، صَالِحَةٌ جِدًّا . » فَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ أَقَرَّ لِرَجُلٍ جَاءَ
لِيُصَادَّ لُؤْلُوءَةً أَنَّ الْمِنْطَقَةَ غَيْرُ صَالِحَةٍ لِلصَّيْدِ .

سَأَلَنِي : « لِمَاذَا إِذَا تَذَهَبُ سَفُنُكُمْ إِلَى سِيرَالْفُو ؟ »

أَجَبْتُهُ : « إِنَّ وَالِدِي يَوَدُّ اسْتِخْرَاجَ لَوْلُؤٍ أَسْوَدَ . »

أَخْرَجَ الرَّجُلُ قِطْعَةً قُمَاشٍ مِنْ دَاخِلِ قَمِيصِهِ قَائِلًا : « هَذِهِ لَوْلُؤَةٌ سَوْدَاءُ . »

كَانَتْ لَوْلُؤَةٌ مُسْتَدِيرَةٌ جَمِيلَةٌ ، كَيْتَلِكَ أَلْتِي اشْتَرَيْتُهَا مِنْهُ مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ . وَرَزَّتُهَا ثُمَّ أَعْطَيْتُهُ أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَحِقُّهُ مِنْ ثَمَنِ ، لِأَنِّي كُنْتُ فِي حَاجَةٍ لِمُعَاوَنَتِهِ .

قُلْتُ : « لَا بُدَّ أَنْ هُنَاكَ أَكْثِيرَ مِنَ اللَّوْلُؤِ الْأَسْوَدِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي اسْتَخْرَجْتَ مِنْهُ هَذِهِ اللَّوْلُؤَةَ . هَلْ تَسْمَحُ لِي بِمُرَافَقَتِكَ لِلصَّيْدِ هُنَاكَ ؟ »



وَسَوْفَ أَدْفَعُ لَكَ ثَمَنَ كُلِّ اللَّوْلُؤِ الَّذِي أَجِدُهُ . »

قَالَ الرَّجُلُ : « لَكِنَّكَ لَسْتَ غَوَاصًّا . »

قُلْتُ : « يُمَكِّنُكَ أَنْ تُعَلِّمَنِي . »

قَالَ : « لَقَدْ قَالَ وَالِدُكَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ إِنَّهُ لَمْ يُرَبِّكَ لِتَفْقِدَ سَاقًا أَوْ ذِرَاعًا أَوْ لِتَخْرُجَ وَلَا تَعُودَ أَبَدًا . »

قُلْتُ : « لَقَدْ ذَهَبَ وَالِدِي إِلَى سِيرَالْفُو ، وَلَنْ يَعُودَ قَبْلَ أُسْبُوعٍ أَوْ أَكْثَرَ ، وَسَتَذَهَبُ وَالِدَتِي وَشَقِيقَتِي إِلَى مَدِينَةِ لُورِينُو الْيَوْمَ . سَأُبْحَثُ عَنْ لَوْلُؤَةٍ سَوْدَاءَ كَبِيرَةٍ وَعِنْدَمَا أَجِدُهَا سَأَدْفَعُ لَكَ ثَمَنَهَا . »

قَالَ : « لَقَدْ ظَلَلْتُ أَحَاوِلُ أَنْ أَجِدَ لَوْلُؤَةً كَأَلْتِي تَتَحَدَّثُ عَنْهَا لِسِتْوَاتٍ عَدِيدَةٍ ، فَكَيْفَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجِدَهَا أَنْتَ فِي أُسْبُوعٍ !؟ »

قُلْتُ : « مِنْ الْمُمْتَمَلِ أَنْ تَجِدَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ تَغُوصُ فِيهَا . »

كَانَ الرَّجُلُ يُفَكِّرُ فِي زَوْجَتِهِ وَأَطْفَالِهِ الْخَمْسَةِ الَّذِينَ كَانَ عَلَيْهِ إِطْعَامُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ .

قَالَ : « حَسَنًا ، سَأَشْتَرِي بَعْضَ الطَّعَامِ ثُمَّ تَرْحَلُ . »

أَعَدْتُ اللَّوْلُؤَ إِلَى الْخِزَانَةِ ، وَسِرْتُ مَعَهُ . وَفِي الطَّرِيقِ إِلَى الشَّاطِئِ كُنْتُ أَفَكِّرُ فِي اللَّوْلُؤَةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي حَلَمْتُ بِهَا عِنْدَمَا كَانَ الْإِشْبِيلِيُّ يَقْصُ قِصَّتَهُ ، وَأَفَكِّرُ كَيْفَ

سَيَكُونُ وَقَعُ الْخَبَرِ عَلَيْهِ عِنْدَ مَا يَسْمَعُ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا تَتَحَدَّثُ عَنِ اللُّلُؤَةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي
وَجَدَهَا رَامُونَ سَالَا زَار .

لَا يَحْلُمُ مِثْلَ هَذَا الْحُلْمِ إِلَّا صِغَارُ الْعُقُولِ ، وَلَكِنْ عَلَى أَيْةٍ حَالٍ ، وَكَمَا يَحْدُثُ
أَحْيَانًا ، يَتَحَوَّلُ الْحُلْمُ إِلَى حَقِيقَةٍ .

الفصل الخامس

بُحَيْرَةُ شَيْطَانِ الْبَحْرِ

عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ وَصَلْنَا إِلَى الْبُحَيْرَةِ ، حَيْثُ يُقِيمُ سُوءُ لُوزُون ، وَقَدْ
تَحَدَّدَ مَدْخُلُهَا بِصَخْرَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ ، بَيْنَهُمَا مَمَرٌ تَجْتَازُهُ الزَّوَارِقُ عِنْدَ دُخُولِهَا
إِلَى الْبُحَيْرَةِ . وَعِنْدَمَا مَرَرْنَا بِهَذَا الْمَدْخَلِ ، رَفَعَ لُوزُون قُبْعَتَهُ . وَعَلَى جَانِبِي
الْبُحَيْرَةِ بَدَتْ لَنَا التَّلَالُ عَمُودِيَّةٌ ، عَلَى حِينِ غَطَّتِ الرَّمَالُ السُّودَاءُ الشَّاطِئَ
عِنْدَ نِهَايَةِ الْبُحَيْرَةِ . وَكَانَتْ هُنَاكَ شَجَرَتَانِ وَبَعْضُ الْأَكْوَاخِ الَّتِي كَانَتْ النَّارُ
مُشْتَعِلَةً فِي دَاخِلِهَا لِإِعْدَادِ طَعَامِ الْإِفْطَارِ .

كَانَتْ الْبُحَيْرَةُ مِثْلَ بَقِيَّةِ الْبُحَيْرَاتِ الْأُخْرَى ، وَلَكِنْ كَانَ فِيهَا شَيْءٌ لَمْ
يُرْفَنِي وَسَبَّبَ لِي انْزِعَاجًا . لَمْ يَكُنْ هَذَا الشَّيْءُ الضَّبَابُ الْأَحْمَرُ ، أَوْ الْعَمَامُ
الْأَحْمَرُ الَّذِي تَجْمَعُ فِي السَّمَاءِ ، وَلَمْ يَكُنِ الرَّمَالُ السُّودَاءُ عَلَى شَاطِئِ
الْبُحَيْرَةِ - كَانَ شَيْئًا مُخْتَلِفًا تَمَامًا .

انْسَابَ قَارِبُ لُوزُون فَوْقَ مَاءِ الْبُحَيْرَةِ بِطُيْءٍ وَهُدُوءٍ شَدِيدٍ ، وَلَاذٌ هُوَ
بِالصَّمْتِ . إِنَّ سَمَكَ الْقِرْشِ سَمَكٌ ضَخْمٌ جِدًّا يَقْتُلُ الْإِنْسَانَ أَحْيَانًا
وَيَفْتَرِسُهُ . وَكَانَتْ هُنَاكَ سَمَكَةٌ مِنْ هَذَا النَّوْعِ تَسْبَحُ حَوْلَ الْقَارِبِ ، وَأَشَارَ
إِلَيْهَا لُوزُونُ دُونَ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ . وَظَلَّ صَامِتًا حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مِنْطَقَةِ
الْأَكْوَاخِ ، وَعِنْدَئِذٍ قَالَ :

« يَجِبُ أَلَّا تَتَكَلَّمَ وَنَحْنُ فِي الْبَحِيرَةِ . وَتَذَكَّرْ هَذَا عِنْدَمَا تَخْرُجُ
لِلْعَوَصِ ، فَهُنَاكَ مَنْ يُصْغِي إِلَى حَدِيثِنَا وَيَغْضَبُ بِسُرْعَةٍ . »

سَأَلَتْهُ : « مَنْ ذَا الَّذِي يَسْمَعُ وَيَغْضَبُ ؟ »

أَجَابَ : « شَيْطَانُ الْبَحْرِ . »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ يَعِيشُ هُنَا فِي بُحَيْرَتِكُمْ ؟ »

أَجَابَ : « نَعَمْ ، إِنَّهُ يَسْكُنُ فِي كَهْفٍ كَبِيرٍ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَرَاهُ عِنْدَ
الْمَدْخَلِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْ طَرِيقِ فَتْحَةٍ خَفِيَّةٍ أُخْرَى . »

تَنَاوَلْنَا الْإِفْطَارَ فِي كُوْخِ لُوزُون ، وَغَفَوْنَا فِتْرَةً ، ثُمَّ تَنَاوَلْنَا وَجِبَةً أُخْرَى
وَعُدْنَا إِلَى الْبَحِيرَةِ لِنَسْتَأْنِفَ رِحْلَتَنَا إِلَى حَيْثُ يُوجَدُ اللَّوْلُو . وَكَانَ الضَّبَابُ قَدْ
تَلَاشَى ، وَبَدَتْ السَّمَاءُ خَضِرَاءَ صَافِيَةً .

قَالَ لُوزُون : « إِنَّ اخْتِفَاءَ الضَّبَابِ يَعْنِي انْصِرَافَ شَيْطَانِ الْبَحْرِ . »

قُلْتُ أَسْأَلُهُ : « أَلَا نَقْدُ انْصِرَافَ نَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَكَلَّمَ إِذَا ؟ »

أَجَابَ : « نَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَكَلَّمَ قَلِيلًا ، وَلَكِنْ كُنْ حَذِرًا فِي كَلَامِكَ . إِنَّ لَهُ
أَصْدِقَاءَ كَثِيرِينَ فِي الْبَحِيرَةِ ، وَسَوْفَ يُخْبِرُونَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِنْدَمَا يَعُودُ . »

سَأَلَتْهُ : « أَخَائِفُ أَنْتَ ؟ أَلَا تَرْغَبُ فِي مُغَادَرَةِ الْبَحِيرَةِ ؟ »

أَجَابَ : « كَلَّا ! أَنَا لَا أَخَافُ شَيْطَانَ الْبَحْرِ . إِنَّ أَبِي وَجَدَنِي لَمْ يَخَافَا



مِنْهُ ! إِنَّا نَعْرِفُ أَنَّهَا بُحَيْرَتُهُ ، وَأَنَا أَرْفَعُ قُبْعِي نَحِيَّةً لَهُ كُلَّمَا دَخَلْتُهَا أَوْ
خَرَجْتُ مِنْهَا . وَهُوَ لِذَلِكَ يَسْمَحُ لِي بِصَيْدِ اللَّوْلُؤِ الْأَسْوَدِ . إِنَّهُ لَوْلُؤُهُ فِي
الْحَقِيقَةِ ، وَلَكِنَّهُ يَسْمَحُ لِي بِأَخْذِ بَعْضِ مِنْهُ .

اتَّجَهْنَا بِقَارِبِنَا نَاحِيَةَ الشَّاطِئِ الْجَنُوبِيِّ ثُمَّ تَوَقَّفْنَا .

قَالَ لُوزُون : « الْآنَ سَأَعْلَمُكَ كَيْفَ تُعْوِصُ . يَجِبُ أَنْ تَتَعَلَّمَ التَّنْفُسُ
أَوَّلًا . رَاقِبْنِي . اسْتَنْشِقْ عِدَّةَ مَرَّاتٍ بَعْمَقٍ ثُمَّ أَخْرِجِ الْهَوَاءَ . حَاوِلِ الْآنَ . »

أَخَذْتُ نَفْسًا عَمِيقًا ، فَقَالَ : « خُذْ نَفْسًا أَعْمَقَ . » وَحَاوَلْتُ ثَانِيَةً ،
وَقَالَ : « أَعْمَقَ ! » . حَاوَلْتُ مَرَّةً ثَالِثَةً ، فَقَالَ : « هَذِهِ الْمَرَّةُ أَحْسَنُ . وَلَكِنْ
عَلَيْكَ أَنْ تَتَعَلَّمَ كَيْفَ تُجِيدُ التَّنْفُسَ . سَنَعْوِصُ مَعًا إِلَى الْقَاعِ . »

بَعْدَ ظَهْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مَلَأْنَا عِدَّةَ سِلَاحٍ بِالْمَحَارِ ، وَلَكِنَّا لَمْ نَجِدْ بِدَاخِلِهَا
سِوَى لَوْلُؤٍ صَغِيرٍ . وَهَكَذَا كَانَتْ الْحَالُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَالْيَوْمِ الَّذِي تَلَاهُ .
فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ خَرَجْتُ بِمُفْرَدِي لِأَنَّ لُوزُونَ كَانَ مُصَابًا فِي يَدِهِ - هَكَذَا
قَالَ .

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَجَدْتُ لَوْلُؤَةَ السَّمَاءِ .

الفصل السادس

كَيْفَ وَجَدْتُ لَوْلُؤَةَ السَّمَاءِ

تَنَاوَلْنَا وَجِبَةَ الْعِشَاءِ ، وَذَهَبَ الْأَطْفَالُ وَالتِّسَاءُ إِلَى الْفِرَاشِ ، وَجَلَسْتُ مَعَ
لُوزُونَ بِجَوَارِ النَّارِ أَجَازِبُهُ أَطْرَافِ الْحَدِيثِ .

سَأَلْتُهُ : « لَقَدْ اصْطَدْتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنَ الْبَحِيرَةِ عِدَا الْكَهْفِ ، أَلَيْسَ
كَذَلِكَ ؟ »

أَجَابَ : « نَعَمْ ، إِنِّي لَمْ أَقْتَرِبْ فِي صَيْدِي مِنَ الْكَهْفِ ، وَكَذَلِكَ أَبِي
وَجَدِّي . »

قُلْتُ : « رُبَّمَا يَكُونُ هُنَاكَ لَوْلُؤٌ كَبِيرٌ . »

لَمْ يُجِبْ ، وَلَكِنَّهُ تَهَضَّ وَوَضَعَ بَعْضَ الْحَطَبِ فِي النَّارِ وَجَلَسَ مِنْ جَدِيدٍ .

قُلْتُ : « رُبَّمَا وَجَدْتُ هُنَاكَ لَوْلُؤَةَ السَّمَاءِ . »

لَمْ يُجِبِ الرَّجُلُ ، وَلَكِنَّهُ نَظَرَ إِلَيَّ نَظْرَةً ذَاتَ مَعْنَى : إِنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى
الْكَهْفِ خَوْفًا مِنْ شَيْطَانِ الْبَحْرِ ، وَإِذَا رَغِبْتُ أَنَا فِي الصَّيْدِ هُنَاكَ فَيُمْكِنُنِي أَنْ
أَذْهَبَ بِمُفْرَدِي .

فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الرَّابِعِ ، ذَهَبْتُ بِمُفْرَدِي إِلَى الشَّاطِئِ ، بَعْدَ أَنْ قَالَ لُوزُونَ
إِنَّ يَدَهُ مُصَابَةٌ وَإِنَّهُ لَنْ يَبْرَحَ مَكَانَهُ ، وَنَظَرَ إِلَيَّ فَفَهِمْتُ مَا يَعْنِيهِ .

كَانَ الضُّبَابُ الْأَحْمَرُ يُخَيِّمُ عَلَى الْمَاءِ ، وَعَبَّرْتُ الْبَحِيرَةَ قَاصِدًا الْكَهْفَ
الَّذِي يَسْكُنُهُ شَيْطَانُ الْبَحْرِ ، كَمَا قَالَ لُوزُون . وَبَعْدَ سَاعَةٍ مِنَ الْبَحْثِ
وَجَدْتُ الْكَهْفَ ، فَقَدْ كَانَ مُحْتَفِيًا تَحْتَ صَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ فِي مُوْاجِهَةِ الشَّمْسِ
الْمُشْرِقَةِ . كَانَ اتِّسَاعُ فَتْحَتِهِ حَوَالَى بَسْعَةِ أَمْتَارٍ ، وَارْتِفَاعُهَا حَوَالَى مِثْرَيْنِ ،
وَكَانَ الْكَهْفُ مُتَحِدِّرًا إِلَى أَسْفَلٍ كَقَمِيمٍ مَفْتُوحٍ . وَلَمْ أَرِ مَا بِدَاخِلِهِ بِسَبَبِ
الضُّبَابِ الْأَحْمَرِ ، فَانْتَظَرْتُ حَتَّى ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ وَثَلَاثَى الضُّبَابُ ، حِينَئِذٍ
اسْتَطَعْتُ أَنْ أَرَى لِمَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ مَا بِدَاخِلِهِ .

عَبَّرْتُ الْمَدْخَلَ وَوَصَلْتُ إِلَى قَاعَةٍ كَبِيرَةٍ ذَاتِ سَقْفٍ مُرْتَفِعٍ ، وَجُدْرَانِهَا
سَوْدَاءُ تَلْمَعُ مِنَ الضَّوِّ الَّذِي يَنْفُذُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَدْخَلِ . وَكَانَتِ الْمِيَاهُ بِالْقُرْبِ
مِنْ مَدْخَلِ الْكَهْفِ مِنَ الصَّفَاءِ بَحِيثٍ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَرَى الْمَحَارَ الْمَوْجُودَ فِي
الْقَاعِ .

تَنَاوَلْتُ أَلْسَلَةً وَحَجَرَ الْغَوْصِ الْمَرْبُوطَ فِي الْحَبْلِ ، وَأَخَذْتُ نَفْسًا عَمِيقًا ،
وَهَبَطْتُ مِنْ جَانِبِ الْقَارِبِ .

بَلَغْتُ الْقَاعَ عَلَى عُمُقِ أَرْبَعَةِ أَمْتَارٍ تَقْرِيًا ، وَرَأَيْتُ الْمَحَارَ الَّذِي لَمَحْتُهُ مِنْ
أَعْلَى ، وَكَانَ عَلَى بُعْدِ خَمْسِ خُطُوَاتٍ تَقْرِيًا . وَكَانَ أَكْبَرَ مَحَارٍ شَاهَدْتُهُ فِي
حَيَاتِي ؛ إِذْ بَلَغَ طُولُ الْوَاحِدَةِ مَا يَزِيدُ عَلَى ٣٠ سَنْتِمِترًا ، وَكَانَ الْمَحَارُ
سَمِيكًا جَدًّا وَمَكْسُورًا بِالْأَغْصَابِ الْبَحْرِيَّةِ الَّتِي تُشَبِّهُ شَعَرَ النَّسَاءِ . وَاخْتَرْتُ
أَقْرَبَ مَحَارَةٍ ، فَقَدْ بَدَتْ أَيْسَرَ مِنْ غَيْرِهَا فِي الْحُصُولِ عَلَيْهَا ، وَبَدَأْتُ أَنْزِعُهَا
بِسِكِّينِي . وَلَكِنْ صِغَارُ السَّمَكِ ظَلَّ يَسْبَحُ حَوْلِي بِكَثْرَةٍ ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ نَزْعَهَا ،

وَصَبَعْتُ إِلَى السَّطْحِ كَيْ أَنْتَفَسَ .

غَضْتُ ثَانِيَةً ، وَوَصَلْتُ إِلَى الْقَاعِ ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا بَدَأْتُ أَنْزِعَ الْمَحَارَةَ
شَاهَدْتُ ظِلًّا يُخَيِّمُ عَلَى الْمَكَانِ . كَانَ الظِّلُّ لِسَمَكَةٍ قَرِشٍ رَمَادِيَّةٍ ، وَلَكِنَّهَا
كَانَتْ مِنَ الْأَسْمَاكِ الصَّدِيقَةِ ، وَمَا لَيْتُ أَنْ انْصَرَفْتُ . وَكَانَ لَا بُدَّ لِي مِنَ
الْصُّعُودِ إِلَى السَّطْحِ لِلتَّنَفُّسِ مِنْ جَدِيدٍ .



غَضْتُ سِتَّ مَرَّاتٍ ، وَكُنْتُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ أَعْمَلُ بِسُرْعَةٍ لِاتِّزَاعِ الْمَحَارَةِ
مِنَ الصَّخْرَةِ الَّتِي التَّصَقَّتْ بِهَا مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ ، وَأَذْرَكْتُ أَنَّ اتِّزَاعَهَا لَيْسَ
سَهْلًا .

لَمْ يَكُنِ الضَّوُّ كَافِيًا بَعْدَ الظُّهْرِ ، وَكَانَتْ الدَّمَاءُ تُسِيلُ مِنْ جُرْحٍ فِي يَدِي ،
وَعَيْنَايَ تُولِمَانِي بِسَبَبِ مُلَوْحَةِ مِيَاهِ الْبَحْرِ .

جَلَسْتُ فِي الْقَارِبِ أَفَكِّرُ فِي السَّاعَاتِ الَّتِي أَضَعْتُهَا دُونَ فَائِدَةٍ ، وَتَذَكَّرْتُ
الْإِسْبِيلِيَّ وَقِصَّةَ لَوْلُوتِهِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي وَجَدَهَا (أَوْ قَالَ إِنَّهُ وَجَدَهَا) فِي الْخَلِيجِ
الْعَرَبِيِّ .

أَخَذْتُ نَفْسًا عَمِيقًا جَدًّا وَغَضْتُ مِنْ جَدِيدٍ .

بِأَوَّلِ ضَرْبَةٍ مِنَ السَّكِّينِ نَزَعْتُ الْمَحَارَةَ فَسَقَطَتْ عَلَى جَانِبِهَا ، وَلَفَفْتُ
عَلَيْهَا الْحَبْلَ مَرَّتَيْنِ وَصَعِدْتُ إِلَى الْقَارِبِ ، وَجَذَبْتُهَا إِلَيْهِ . وَلَكِنَّهَا كَانَتْ مِنْ
الثَّقَلِ بِحَيْثُ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَرْفَعَهَا إِلَى الْقَارِبِ ، فَرَبَطْتُهَا فِي مُؤَخَّرَتِهِ وَغَادَرْتُ
الْكَهْفَ .

شَاهَدْتُ سُوُتَ لُوزُونٍ وَاقِفًا بَيْنَ الْأَشْجَارِ عَلَى آلْجَانِبِ الْآخِرِ مِنَ
الْبُحِيرَةِ . لَقَدْ ظَلَّ وَاقِفًا هَكَذَا طَوَالَ الْيَوْمِ وَعَيْنَاهُ مُثَبَّتَانِ عَلَى الْكَهْفِ .

كَانَ يُخَاطِبُ شَيْطَانَ الْبَحْرِ قَائِلًا : « أَنَا لَمْ أُوَافِقْ عَلَى ذَهَابِي إِلَى الْكَهْفِ ،
وَأَرْجُو أَلَّا تَغْضَبَ مِنِّي . »

أَمَّا أَنَا فَقَدْ كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ لَنْ يُحَاقِلَ إِنْقَازِي لَوْ أَشْرَفْتُ عَلَى الْعَرَقِ .
أَمَّا إِذَا وَجَدْتُ لَوْلُوتَهُ فَسَيَقْتَسِمُ ثَمَنُهَا مَعِي . وَلَنْ يَغْضَبَ مِنْهُ شَيْطَانُ الْبَحْرِ
لِأَنَّهُ لَمْ يَشْتَرِكْ مَعِي فِي صَيْدِهَا .

عِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى الشَّاطِئِ ، اتَّجَهَ نَحْوِي مُتَظَاهِرًا بِعَدَمِ الْمُبَالَاهِ بِمَا أَكُونُ
قَدْ وَجَدْتُ ، كَيْ يُظْهِرَ لِشَيْطَانِ الْبَحْرِ وَأَصْدِقَائِهِ أَنَّ لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِمَا
اصْطَدْتُ .

جَذَبْتُ الْمَحَارَةَ حَتَّى الرَّمَالِ .

أَبْدَى دَهْشَتَهُ قَائِلًا : « إِنَّهَا مَحَارَةٌ كَبِيرَةٌ . لَمْ أَرْ فِي حَيَاتِي أَكْبَرَ مِنْ هَذِهِ
الْمَحَارَةِ . إِنَّهَا جَدَّةُ كُلِّ الْمَحَارِ الَّذِي يَعِيشُ فِي الْبَحْرِ . »

قُلْتُ : « فِي الْكَهْفِ مَحَارٌ كَثِيرٌ أَكْبَرُ مِنْ هَذِهِ الْمَحَارَةِ . »

قَالَ : « مَا دَامَ هُنَاكَ الْكَثِيرُ فَلَنْ يَغْضَبَ شَيْطَانُ الْبَحْرِ لِأَنَّكَ أَخَذْتَ مَحَارَةً
وَاحِدَةً مِنْهَا . »

قُلْتُ : « رُبَّمَا غَضِبَ بَعْضُ الشَّيْءِ ، وَلَكِنَّهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَنْ يَغْضَبَ
كَثِيرًا . »

كَانَ فَمُ الْمَحَارَةِ مُغْلَقًا ، وَكَانَ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ أُدْخِلَ سِكِّينِي بَيْنَ حَافَتَيْهِ ،
فَسَأَلْتُهُ : « هَلْ تَسْمَحُ لِي بِسِكِّينِكَ ؟ إِنَّ سِكِّينِي لَمْ يَعْذُ بِصُلْحٍ بَعْدَ أَنْ تَنَلَّمُ
عِنْدَ اتِّزَاعِ الْمَحَارَةِ مِنَ الصَّخْرَةِ . »

وَضَعَ لُوزُون يَدَهُ عَلَى السَّكِينِ وَلَكِنَّهُ أَعَادَهَا قَائِلًا : « مِنْ الْأَفْضَلِ أَنْ
تَسْتَحْدِمَ سِكِّينَكَ . »

أَخِيرًا فَتَحَتِ الْمَحَارَةَ ، ثُمَّ أَدْخَلَتْ فِيهَا أَصْبَعِي ، فَاصْطَلَمْتُ بِلُؤْلُؤَةٍ
أَخْرَجْتُهَا . كَانَ قُطْرُهَا نِصْفَ سَنْتِيمِترٍ تَقْرِيْبًا ، ثُمَّ أَخْرَجْتُ لُؤْلُؤَةً ثَانِيَةً بِنَفْسِ
الْحَجْمِ ، ثُمَّ ثَالِثَةً .

أَقْبَلَ لُوزُون نَحْوِي وَشَعَرْتُ بِأَنْفَاسِهِ تَلْفَحُ رَقَبَتِي .

دَفَعْتُ يَدَيَّ يَظْءٍ إِلَى أَعْمَاقِ جِسْمِ الْمَحَارَةِ فَأَحْسَسْتُ بِجِسْمِ صُلْبٍ .
وَكَانَ جِسْمًا كَبِيرًا ، وَأَكْبَرَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لُؤْلُؤَةً . أَخْرَجْتُهُ وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ فِي
ضَوْءِ الشَّمْسِ ظَانًّا أَنَّهُ حَجَرٌ تَسَلَّلَ إِلَى دَاخِلِ الْمَحَارَةِ .

كَانَ مُسْتَدِيرًا وَفِي لَوْنٍ الدُّخَانِ ، وَمَلَأَ كَفَّ يَدِي . وَعِنْدَ مَا تَحَلَّلَهُ ضَوْءُ
الشَّمْسِ أَضْفَى عَلَيْهِ لَوْنًا فِضِّيًّا . إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَجَرًا إِذَا . إِنَّهُ لُؤْلُؤَةُ السَّمَاءِ
الْعَظِيمَةِ .

قَالَ لُوزُون بِصَوْتٍ خَافِتٍ : « يَا إِلَهِي ! يَا إِلَهِي ! »

مَزَقْتُ قِطْعَةً مِنْ قِمِيصِي ، وَوَضَعْتُ فِيهَا اللُّؤْلُؤَةَ ، وَمَدَدْتُ يَدِي بِهَا إِلَيْهِ
قَائِلًا : « نِصْفُهَا لَكَ . فَتَرَجَعَ إِلَى الْوَرَاءِ خَائِفًا ، فَسَأَلْتُهُ : « هَلْ تُرِيدُنِي أَنْ
أُحْفِظَ بِهَا حَتَّى نَعُودَ إِلَى لَابَاز ؟ »

أَجَابَنِي : « نَعَمْ ، مِنْ الْأَفْضَلِ لَكَ أَنْ تُبْقِيَهَا مَعَكَ . »

سَأَلْتُهُ : « مَتَى نَعُودُ ؟ »

قَالَ : « فَوْرًا ! إِنَّ شَيْطَانَ الْبَحْرِ غَائِبٌ ، وَلَكِنَّهُ سَيَعُودُ ، وَسَيُخْبِرُهُ
أَصْدِقَاؤُهُ عَنِ اللُّؤْلُؤَةِ . »

الفصل السابع

شيطان البحر يتبعني

لَمْ نَنْتَظِرْ حَتَّى نَأْكُلَ ، بَلْ أُنْزِلْتُ الْقَارِبَ إِلَى الْمَاءِ ، وَذَهَبَ لُوزُونُ إِلَى كُوَيْخِهِ وَأَخْضَرَ قَلِيلًا مِنَ الْكَعْكَ .

عِنْدَ مُرُورِنَا أَمَامَ الْكَهْفِ لَمَسَ قُبْعَتُهُ وَنَمْتَمَ بِبَعْضِ الْكَلِمَاتِ الْخَافِتَةِ .

كَانَ الْقَمَرُ سَاطِعًا ، وَعِنْدَ مُتَنَصِّفِ اللَّيْلِ كُنَّا عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ خَلِيجِ بِيْشَلِيْنِكْ ، وَاسْتَطَعْنَا أَنْ نَرَى أَضْوَاءَ مَدِينَةِ لَابَازَ عَلَى بُعْدٍ . وَفَجْأَةً نَظَرَ لُوزُونُ خَلْفَهُ ، وَكَانَ قَدْ كَرَّرَ ذَلِكَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ مُنْذُ أَنْ غَادَرْنَا الْبَحِيرَةَ . وَرَفَعَ ذِرَاعَهُ وَأَشَارَ ، ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ هَادِيٍّ : « شَيْطَانُ الْبَحْرِ ! »

رَأَيْتُ خَلْفَنَا عَلَى مَسَافَةٍ طَوِيلَةٍ مَا كَانَ يَعْنِيهِ - رَأَيْتُ شَيْئًا ضَخْمًا يَتَحَرَّكُ فِي الْمَاءِ .

قُلْتُ : « إِنَّهَا سَمَكَةٌ ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ شَيْطَانُ الْبَحْرِ . لَقَدْ رَأَيْتُهَا مِنْ قَبْلُ .. رَأَيْتُهَا الْأُسْبُوعَ الْمَاضِي . »

قَالَ : « إِنَّهُ شَيْطَانُ الْبَحْرِ ! » وَادَّارَ الْقَارِبَ نَحْوَ الشَّاطِئِ قَائِلًا : « سَنَذْهَبُ إِلَى بِيْشَلِيْنِكْ . »

قُلْتُ : « وَلَكِنْ لَابَازَ لَيْسَتْ بَعِيدَةً . »

أَجَابَ : « إِنَّهَا بَعِيدَةٌ جِدًّا وَلَنْ نُصِلَهَا أَبَدًا . »

عَمِلَ بِكُلِّ قُوَّتِهِ ، وَبَدَأَ الْقَارِبُ وَكَأَنَّهُ يَقْفِزُ فَوْقَ الْمَاءِ . لَقَدْ اِعْتَقَدْتُ أَنَّ شَيْطَانَ الْبَحْرِ يَتَّبِعُنَا حَتَّى يَسْتَرِدَّ اللَّوْلُوَّةَ الَّتِي سَرَقْتُهَا . وَجَذَفْتُ بِكُلِّ قُوَّتِي ، وَفَكَّرْتُ فِي اللَّوْلُوَّةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي كُنْتُ أُحْتَفِظُ بِهَا فِي قَمِيصِي . وَفَكَّرْتُ فِي الْأَشْيَلِيِّ وَمَدَى دَهْشَتِهِ عِنْدَمَا يَرَاهَا . وَتَسَاءَلْتُ : « مَاذَا سَيَقُولُ أَبِي وَكُلُّ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ؟ »

وَبَيْنَمَا نَحْنُ نَعْبُرُ مَدْخَلَ خَلِيجِ بِيْشَلِيْنِكْ سَأَلَنِي : « هَلْ تَرَى شَيْطَانَ الْبَحْرِ ؟ »

أَجَبْتُ : « كَلَّا ! لَا أَرَاهُ . »

فَجْأَةً دَوَّى صَوْتُ مُرْعَبٍ ، وَكَأَنَّمَا انْطَبَقَتْ عَلَيْنَا السَّمَاءُ ، وَارْتَفَعَ الْقَارِبُ ، ثُمَّ انْقَلَبَ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ ، وَقَذَفَ بِي فِي الْمَاءِ . وَارْتَفَعَتِ الْأَمْوَاجُ الْمُهَالِلَةُ تَتَلَاطَمُ فَوْقَ رَأْسِنَا .

لَمْ أُسْتَطِعْ رُؤْيَةَ لُوزُونِ ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ صُرَاخَهُ . وَكَانَ كُلُّ تَفْكِيرِي مُنْحَصِرًا فِي اللَّوْلُوَّةِ ، فَوَضَعْتُ يَدِي فِي قَمِيصِي وَوَجَدْتُهَا .

سَبَحْتُ إِلَى الشَّاطِئِ ، وَكَانَ لُوزُونُ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ . وَوَقَفْتُ عَلَى الشَّاطِئِ وَأُخْرِجْتُ لَهُ اللَّوْلُوَّةَ حَتَّى يُدْرِكَ أَنَّهَا فِي أَمَانٍ .

قَالَ : « ارْمِهَا فِي الْبَحْرِ . إِنَّ شَيْطَانَ الْبَحْرِ يَنْتَظِرُهَا وَلَنْ يَهْدَأَ حَتَّى يَسْتَرِدَّهَا . »



قُلْتُ لَهُ : « إِنَّهَا تُسَاوِي أَمْوَالًا طَائِلَةً وَسَتَغَيِّرُ رَأْيَكَ . »

قَالَ : « أَبَدًا ! لَنْ أُغَيِّرَ رَأْيِي أَبَدًا ! »

قُلْتُ لَهُ : « لَقَدْ تَرَكْتُ ثَلَاثَ لَآئِي هُنَاكَ . »

قَالَ : « سَأَلْقِي بِهَا إِلَى الْبَحْرِ . »

قُلْتُ : « أَفْعَلُ مَا شِئْتَ . »

قَالَ : « عَلَيْكَ أَنْ تَقْدِفَ بِاللُّؤْلُؤَةِ الْكَبِيرَةِ فِي الْبَحْرِ أَيْضًا ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ
فَسَوْفَ يَسْتَرِدُّهَا شَيْطَانُ الْبَحْرِ يَوْمًا ، وَسَوْفَ يَأْخُذُ حَيَاتِكَ مَعَهَا . »

تَبَادَلْنَا التَّحِيَّةَ ، وَسِرْتُ بِحِذَاءِ الْشَّاطِطِ فِي اتِّجَاهِ مَدِينَةِ لَابَازَ ، وَكَانَتْ عَلَى
بُعْدِ سِتَّةَ عَشَرَ كِيلُو مِثْرًا تَقْرِيْبًا وَبَلَغْتُهَا قَبْلَ طُلُوعِ النَّهَارِ .

كَانَ الْخَلِيجُ هَادِئًا ، وَلَمْ أَرُ شَيْئًا سِوَى الْقَارِبِ الْمُحْطَمِ . وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ
أَثَرٌ لِشَيْطَانِ الْبَحْرِ .

قُلْتُ : « إِنَّ اللُّؤْلُؤَةَ مَعَنَا ، وَمَا زِلْنَا أَحْيَاءَ . إِذَا سِرْنَا بِسُرْعَةٍ وَصَلْنَا إِلَى
لَابَازَ قُبَيْلَ طُلُوعِ النَّهَارِ . »

قَالَ : « لَنْ أَذْهَبَ إِلَى هُنَاكَ بِاللُّؤْلُؤَةِ ، وَسَأُبْقَى هُنَا حَتَّى الصَّبَاحِ لِأَسْتَعِيدَ
الْقَارِبَ . إِنَّ اللُّؤْلُؤَةَ تَخْصُكَ أَنْتَ ، فَأَنَا لَمْ أَجِدْهَا وَلَا عَلاقَةَ لِي بِهَا . »
وَأَبْتَعَدَ عَنِّي كَمَا لَوْ كُنْتُ أُحْمِلُ فِي يَدِي شَرًّا مُسْتَطِيرًّا .

الفصل الثامن

اثنان وستون قيراطا

وَصَلْتُ لَاباز قَبْلَ طُلُوعِ النَّهَارِ ، وَذَهَبْتُ إِلَى مَكْتَبِ سَالازار وَوَلَدِهِ ، فَدَخَلْتُهُ وَأُخْرِجْتُ اللُّوْلُوَّةَ مِنْ قِطْعَةِ الْقَمَاشِ الَّتِي قَطَعْتُهَا مِنْ قَمِيصِي ، وَوَزَنْتُهَا وَكَانَتْ تَزُنُ اثْنَيْنِ وَسِتِّينَ قِيرَاطًا .

أَعَدْتُ اللُّوْلُوَّةَ إِلَى مَكَانِهَا فِي قَمِيصِي . وَكَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ أَشْرَقَتْ ، وَخَرَجَ النَّاسُ إِلَى الشُّوَارِعِ . وَشَرَعْتُ كَعَادَتِي أُحْيِي مَنْ يُقَابِلُنِي ، وَتَوَقَّفْتُ بِالقُرْبِ مِنْ مَكْتَبِ الْبَرِيدِ لِأَتَحَدَّثَ إِلَى سَيِّدَةِ تَبِيعِ مَشْرُوبَاتِ سَاحِنَةِ .

وَصَلْتُ مَنْزِلَنَا فِي الْمِيدَانِ ، وَلِلْمَنْزِلِ بَوَابَةٌ حَدِيدِيَّةٌ تُغْلَقُ فِي اللَّيْلِ . وَلَمَّا قَرَعْتُ جَرَسَ أَلْبَابِ فَتَحَهُ الْخَادِمُ الْهِنْدِيُّ ، فَالْقَيْتُ عَلَيْهِ نَحِيَّةَ الصَّبَاحِ وَتَوَجَّهْتُ إِلَى الْمَطْبَخِ ، وَتَنَاوَلْتُ وَجَبَةً إِفْطَارٍ كَبِيرَةً كَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَخْدُثْ ، وَكَانَتْ لِي لَا أُمْلِكُ أَجْمَلَ لُؤْلُؤَةٍ وَجِدْتُ فِي بَحْرِ فِيرْمِيلْيُون .

ذَهَبْتُ إِلَى غُرْفَتِي وَرَقَدْتُ فِي فِرَاشِي ، ثُمَّ نَهَضْتُ وَوَضَعْتُ اللُّوْلُوَّةَ فِي مَكَانٍ أَمِينٍ تَحْتَ رَأْسِي مُبَاشَرَةً ، وَعُدْتُ إِلَى فِرَاشِي وَتَهَيَّأْتُ لِلنَّوْمِ . حَاوَلْتُ أَنْ أَبْعِدَ عَنْ ذِهْنِي اللُّوْلُوَّةَ وَمَا سَيَقُولُهُ أَبِي وَكَذَلِكَ الْإِشْبِيلِي . ثُمَّ تَذَكَّرْتُ أَنَّي لَمْ أُغْلِقْ بَابَ مَكْتَبِنَا ، فَنَهَضْتُ وَوَضَعْتُ اللُّوْلُوَّةَ فِي قَمِيصِي ، وَانْطَلَقْتُ إِلَى مَكْتَبِنَا .

عِنْدَمَا مَرَرْتُ بِبَائِعَةِ الْمَشْرُوبَاتِ السَّاحِنَةِ نَادَتْني ، وَكَانَتْ تَبِيعُنَا أَحْيَانًا بَعْضَ حَبَّاتِ اللُّوْلُوَّةِ الصَّغِيرَةِ . وَكَانَتْ تَدُسُّ أَثْفَهَا فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَتَوَدُّ أَنْ تُعْرِفَ كُلَّ مَا يَجْرَى فِي لَاباز .

قَالَتْ : « إِنَّكَ تَرُوحُ وَتَجِيءُ كَثِيرًا هَذَا الصَّبَاحَ . »

قُلْتُ : « نَعَمْ ، إِنَّهُ صَبَاحٌ جَمِيلٌ يُشَجِّعُ عَلَى السَّيْرِ . »

قَالَتْ : « اقْتَرِبْ . هَلْ تَعْرِفُ كَانَتَوِ الصَّيَّادَ الَّذِي يُقِيمُ فِي بَيْتِكَ ؟ »

أَجَبْتُهَا : « نَعَمْ ، أَعْرِفُهُ . »

قَالَتْ : « لَقَدْ مَرَّ مِنْ هُنَا حَالًا وَأُخْبِرَنِي بِالْعُثُورِ عَلَى لُؤْلُؤَةٍ كَبِيرَةٍ . هَلْ سَمِعْتَ بِذَلِكَ ؟ »

أَجَبْتُ : « إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْعُثُورِ عَلَى لُؤْلُؤَةٍ كَبِيرَةٍ تَسْمَعُهُ كُلُّ أُسْبُوعٍ ، ثُمَّ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ الْقِصَّةَ وَهْمِيَّةٌ . »

كُنْتُ حَرِيصًا لَا تَعْلَمُ هِيَ أَوْ سِوَاهَا بِخَبَرِ اللُّوْلُؤَةِ حَتَّى يَعُودَ وَالِدِي ، فَهُوَ

الَّذِي يُقَرِّرُ كَيْفَ وَمَتَى يُدَاعِ الْخَبْرُ فِي الْمَدِينَةِ . وَلَيْسَ مِنْ حَقِّي كَائِنِهِ أَنْ

أَسْلُبُهُ هَذَا الشَّرْفَ ؛ لِذَا حَيَّيْتُهَا وَانْصَرَفْتُ .

عِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى آخِرِ الشَّارِعِ ، شَاهَدْتُ حَشْدًا مِنَ النَّاسِ يَتَجَمَّعُ أَمَامَ

« مَكْتَبِ سَالازار وَوَلَدِهِ » فَقَرَّرْتُ الْعُودَةَ إِلَى الْمَنْزِلِ ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ

أَحَدَهُمْ يُنَادِي : « رَامُون ! » التَفَتُ الْجَمِيعُ نَحْوِي ، وَأَذْرَكْتُ أَنَّي لَوْ

اتَّجَهْتُ إِلَى مَنْزِلِي لَتَبْعُونِي ، وَلَمْ أَرُبْدًا مِنْ الذَّهَابِ إِلَيْهِمْ .

صَاحَ الْبَعْضُ : « الْلُّؤْلُؤَةُ ! الْلُّؤْلُؤَةُ ! »

وَصَرَخَ الْآخَرُونَ : « أَرِهَا لَنَا ! أَرِهَا لِإِيَّاهَا ! »

تَظَاهَرْتُ بِالذَّهْشَةِ ، وَسَأَلْتُ : « أَيُّهُ لُؤْلُؤَةٌ ؟ » وَدَخَلْتُ الْمَكْتَبَ
وَأَغْلَقْتُ الْبَابَ ، ثُمَّ وَضَعْتُ الْلُّؤْلُؤَةَ فِي الْخِزَانَةِ وَجَلَسْتُ إِلَى الْمَكْتَبِ .

أُطِّلُ صَبِيٍّ مِنَ النَّافِذَةِ الصَّغِيرَةِ الْمَوْجُودَةِ بِالْحَائِطِ ، وَكَانَ يَغْتَلِي ظَهْرُ أَحَدِ
الرِّجَالِ ، وَبَدَأَ يُخْبِرُ الْحَشْدَ بِمَا يُشَاهِدُهُ ، وَعِنْدَمَا فَتَحْتُ السَّجِّلَ قَالَ :
« لَقَدْ فَتَحَ سِجِلًا . »

تَرَايَدَ الْحَشْدُ حَتَّى امْتَلَأَ الشَّارِعُ تَمَامًا عِنْدَ مُتْتَصِفِ النَّهَارِ ، وَتَعَبَ صَبِيُّ
النَّافِذَةِ وَانْصَرَفَ . وَلَكِنِّي جَلَسْتُ إِلَى مَكْتَبِي وَأَخَذْتُ أَكْتُبُ . كُنْتُ أَكْتُبُ
أَيَّ شَيْءٍ يَحْطُرُ بِيَالِي ، وَأَفْكَرُ فِي الْلُّؤْلُؤَةِ الْعَظِيمَةِ .

قُلْتُ أَحَدْتُ نَفْسِي : « آمُلُ أَنْ تَصِلَ سَفِينُنَا قَبْلَ أَنْ أُضْطَرَّ إِلَى مُغَادَرَةِ
الْمَكْتَبِ وَمُوَاجَهَةِ الْحَشْدِ مَرَّةً ثَانِيَةً . »

وَصَلَتِ السَّفِينُ فِي تَمَامِ السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ ، وَتَعَجَّبَ أَبِي لِتَجْمُهْرِ النَّاسِ أَمَامَ
مَكْتَبِنَا ، لِذَا كَانَ أَوَّلَ مَنْ هَبَطَ مِنَ السَّفِينَةِ ، وَجَاءَ رَاكِضًا إِلَى الشَّاطِئِ .
وَعِنْدَمَا فَتَحْتُ الْبَابَ دَخَلَ مُسْرِعًا وَسَأَلَنِي : « مَاذَا حَدَثَ ؟ »

عَادَ الصَّبِيُّ يُطِلُّ مِنَ النَّافِذَةِ ، وَلَكِنِّي فَتَحْتُ الْخِزَانَةَ وَأَخْرَجْتُ الْلُّؤْلُؤَةَ
وَنَاولْتُهَا لِأَبِي قَائِلًا : « هَذِهِ ! لَقَدْ وَجَدْتُهَا . »

أَخَذَهَا أَبِي وَقَلَّبَهَا فِي يَدِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا وَكَأَنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْ مَا رَأَى .
قَالَ بَعْدَ قَلِيلٍ : « هَذِهِ لَيْسَتْ لُؤْلُؤَةً . »

قُلْتُ : « بَلْ هِيَ لُؤْلُؤَةٌ . »

قَالَ : « كَلَّا ! لَا يُوجَدُ فِي كُلِّ بَحَارِ الْعَالَمِ لُؤْلُؤَةٌ بِهَذَا الْحَجْمِ . » ثُمَّ نَظَرَ
إِلَى الْلُّؤْلُؤَةِ قَائِلًا : « لَقَدْ صَنَعْتُهَا بِيَدِكَ . لَقَدْ لَصَقْتُ عِدَّةَ لَالِيٍّ مَعًا وَشَكَّلْتُهَا
عَلَى هَيْئَةِ كُرَةٍ . »

قُلْتُ : « كَلَّا ! إِنَّهَا لُؤْلُؤَةٌ . لُؤْلُؤَةٌ حَقِيقِيَّةٌ وَجَدْتُهَا . »



صَاحَ صَبِيَّ النَّافِذَةِ إِلَى الْجَمْهُورِ قَائِلًا : « إِنَّهَا لَوْلُؤَةٌ كَبِيرَةٌ عَظِيمَةٌ ! أَكْبَرُ
لَوْلُؤَةٍ فِي الْعَالَمِ ! » صَاحَ النَّاسُ فِي الشَّارِعِ .

حَمَلَ أَبِي اللُّوْلُؤَةِ فِي الضَّوِّءِ ، وَقَلْبُهَا يَبْطِئُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ، ثُمَّ فَتَحَ الْبَابَ
وَرَفَعَهَا إِلَى أَعْلَى حَتَّى يُشَاهِدَهَا الْجَمِيعُ .

سَادَ السُّكُونُ ، وَلَمْ أَسْمَعْ سِوَى صَوْتِ الْأَمْوَاجِ الْمُتَكَسِّرَةِ عَلَى
الشَّاطِئِ ، عِنْدَيْدِ اغْلَاقِ أَبِي الْبَابِ وَنَظَرِ إِلَيَّ قَائِلًا : « يَا إِلَهِي ! »

قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ جَلَسَ وَثَبَّتْ عَيْنَيْهِ عَلَى اللُّوْلُؤَةِ السُّودَاءِ الْعَظِيمَةِ
الَّتِي مَلَأَتْ يَدَهُ .

الفصل التاسع

الشَّائِبَةُ

الشَّائِبَةُ هِيَ مَا يُفْسِدُ الشَّيْءَ ، لِأَنَّهَا تَنْتَقِصُ مِنْ كَمَالِهِ . وَشَائِبَةُ اللُّوْلُؤَةِ
عَلَامَةٌ أَوْ بُقْعَةٌ تُفْسِدُهَا ، وَتَقْلَلُ مِنْ جَمَالِهَا .

عِنْدَمَا عُدْتُ مَعَ أَبِي إِلَى مَنْزِلِنَا فِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ تَبِعْنَا حَشْدَ كَبِيرٍ مِنَ النَّاسِ .
وَكَانَ خَبِيرُ عُثُورِ رَامُونَ بْنُ سَالَا زَارَ عَلَى لَوْلُؤَةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ ذَاعَ فِي الْمَدِينَةِ وَفِي
الرَّيْفِ ، وَجَاءَ الْمُزَارِعُونَ مِنْ فَوْقِ الْتَّلَالِ ، وَكَذَلِكَ الصِّيَادُونَ
وَالْعَوَاصُونَ ، وَالتُّجَّارُ مِنْ مَحَلَّاتِهِمْ وَالنِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ . جَاءُوا مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ ، وَتَبِعُونَا مَعَ الْحَشْدِ . جَاءَ الْجَمِيعُ مَا عَدَا الْإِشْبِيلِيَّ . نَعَمْ ، مَا عَدَا
الْإِشْبِيلِيَّ ! كَانَ الْكُلُّ يُعْنِي وَيَهْتَفُ لِلْوُلُؤَةِ الْعَظِيمَةِ . إِنَّ مَدِينَةَ لَابَازَ تَعِيشُ عَلَى
صَيْدِ اللُّوْلُؤِ وَبَيْعِهِ ، لِذَا يَهْتَمُّ كُلُّ مَنْ يَسْكُنُ فِيهَا وَفِي رِيفِهَا بِكُلِّ مَا يَجِيءُ مِنَ
الْبَحْرِ .

تَبِعْنَا الْحَشْدَ حَتَّى بَوَايَةِ الْمَنْزِلِ ، وَظَلَّ النَّاسُ وَاقِفِينَ فِي الْخَارِجِ بَعْدَ أَنْ
أَغْلَقْنَا الْأَبْوَابَ ، وَأَخَذَ عَدْدَهُمْ يَتَزَايَدُ .

كَانَ أَبِي يُزِيلُ الشَّوَائِبَ مِنَ اللُّوْلُؤِ دَاخِلَ حُجْرَةٍ صَغِيرَةٍ فِي بَيْتِنَا . فَأَخَذَ
اللُّوْلُؤَةَ الْعَظِيمَةَ وَدَخَلَ هَذِهِ الْحُجْرَةَ ، وَأَغْلَقَ بَابَهَا حَتَّى لَا يَرَى الْخَدْمُ مَاذَا
يَفْعَلُ .

قَامَ يوزنها في أول الأمر قائلاً : « نَعَمْ إِنَّهَا تزنُ اثْنَيْنِ وَسِتِّينَ قِيرَاطًا ، وَهِيَ مُسْتَدِيرَةٌ تَمَامًا وَلَكِنْ بِهَا شَائِبَةٌ . »

وَضَعَهَا أَمَامَ الضُّوءِ قائلاً : « أَنْظُرْ . سَوْفَ تَرَى شَائِبَةً صَغِيرَةً جِدًّا . اُعْتَقِدْ أَنَّهَا بِالْقَشْرَةِ الْخَارِجِيَّةِ أَوْ تَحْتَهَا ، فَإِنَّا لَسْتُ مُتَأَكِّدًا . »

كُنْتُ قَدْ رَأَيْتُ هَذِهِ الشَّائِبَةَ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَعْرِهَا أَيَّ اهْتِمَامٍ لِصِغَرِهَا . قُلْتُ لَهُ : « أَحْسَنِي عِنْدَ إِزَالَتِكَ شَائِبَةَ اللُّوْلُوَةِ أَنْ تَجِدَهَا غَائِرَةً جِدًّا . »

قَالَ : « إِذَا كَانَتْ الشَّائِبَةُ غَائِرَةً ، فَالْلُّوْلُوَةُ لَيْسَتْ عَظِيمَةً . مَاذَا تُفَضِّلُ : أَنْ تَمْتَلِكَ أَعْظَمَ لُّوْلُوَةٍ ، أَمْ مُجَرَّدَ لُّوْلُوَةٍ جَيِّدَةٍ ؟ »

قُلْتُ : « أُرِيدُ أَعْظَمَ لُّوْلُوَةٍ - لُّوْلُوَةِ السَّمَاءِ . »

لَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَرْغَبُ أَنْ يُرِيلَ أَبِي شَائِبَةَ اللُّوْلُوَةِ ، فَكَمْ شَاهَدْتُ لُّوْلُوًا جَمِيلًا يَتَحَطَّمُ فِي هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ . لِذَلِكَ قُلْتُ : « لَوْ كَانَتْ الشَّائِبَةُ عَمِيقَةً فَلَنْ نَسْتَفِيدَ شَيْئًا ، أَمَّا إِذَا كَانَتْ الشَّائِبَةُ صَغِيرَةً ، فَرُبَّمَا لَا يُلَا حِظُّهَا الْمُشْتَرِي . »

قَالَ أَبِي : « كَلَّا ، إِنَّ الْمُشْتَرِيَّ يَرَى الشَّائِبَةَ قَبْلَ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ . حَتَّى إِذَا كَانَتْ اللُّوْلُوَةُ تزنُ سِتِّينَ قِيرَاطًا وَمُسْتَدِيرَةٌ وَرَائِعَةُ اللَّوْنِ ، سَوْفَ يُغْفَلُ كُلُّ هَذَا وَيَتَحَدَّثُ فَقَطْ عَنْ عَيْبِهَا . أَحْضِرْ مِصْبَاحًا آخَرَ وَقَرِّبْ هَذَا ، ثُمَّ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُرْسِدَ يَدَيَّ وَهِيَ مُمَسِكَةٌ بِالسَّكِّينِ . »

قَرَّبْتُ الْمِصْبَاحَ وَأَحْضَرْتُ مِصْبَاحًا آخَرَ ، وَكَانَ قَلْبِي يَخْفُقُ بِشِدَّةٍ ،

وَأَصْوَاتُ الْغِنَاءِ تَأْتِينَا مِنَ الْتَافِذَةِ ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « بَعْدَ قَلِيلٍ لَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَا نُغْنِي لَهُ . »

بَدَأْتُ أَصْلِي وَلَكِنَّ الْكَلِمَاتِ اخْتَبَسَتْ فِي حَلْقِي ، وَكُنْتُ طَوَالَ الْوَقْتِ أَسْمَعُ صَوْتَ لُوزُونٍ : « سَوْفَ يَسْتَعِيدُهَا شَيْطَانُ الْبَحْرِ يَوْمًا مَا . سَوْفَ يَأْخُذُهَا شَيْطَانُ الْبَحْرِ . » وَفَكَّرْتُ : « هَلْ سَتَتَحَقَّقُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ ؟ هَلْ سَيَحْطُمُ أَبِي اللُّوْلُوَةَ بِسِكِّينِهِ ؟ »

أَمْسَكَتُ أَبِي سِكِّينًا صَغِيرًا بِيَدِي ، وَأَمْسَكَتُ اللُّوْلُوَةَ بِيَدِي الْآخَرَى ، ثُمَّ وَضَعْتُ حَافَةَ السَّكِّينِ عَلَى اللُّوْلُوَةِ ، وَسَمِعْتُ صَوْتًا خَافِتًا بَيْنَمَا كَانَ السَّكِّينُ يَقْطَعُ الْقَشْرَةَ الْخَارِجِيَّةَ ، ثُمَّ انْفَصَلَتِ الْقَشْرَةُ . وَكَانَتْ أَرْقُ مِنْ أَرْقٍ وَرَقَةٍ ثُمَّ زَادَ طُولُهَا ، وَأَخِيرًا سَقَطَتْ عَلَى الْمِنْضَدَةِ .

ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُ الْغِنَاءِ فِي الْخَارِجِ ، أَمَّا دَاخِلُ الْغُرْفَةِ فَلَمْ يَكُنْ سِوَى صَوْتِ أَبِي وَهُوَ يَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ مِنْ جَدِيدٍ .

وَضَعْتُ سِكِّينَهُ وَحَمَلْتُ اللُّوْلُوَةَ وَنَظَرْتُ إِلَيْهَا طَوِيلًا عَلَى ضَوْءِ الْمِصْبَاحِ ، وَكُنْتُ أَرَأَيْتُ مَلَامِحَ وَجْهِهِ الَّتِي لَمْ يَطُرْ عَلَيْهَا أَيُّ تَغْيِيرٍ .

أَخِيرًا قُلْتُ : « حَسَنًا ؟ مَاذَا تَرَى ؟ »

لَمْ يُجِبْنِي ، وَلَكِنَّهُ هَزَّ رَأْسَهُ ، وَالتَّقَطَّ السَّكِّينَ مِنْ جَدِيدٍ ، وَتَطَلَّعْتُ أَنَا إِلَى السَّمَاءِ فِي الْخَارِجِ وَبَدَأْتُ أَصْلِي .

قَالَ : « رَاقِبْنِي وَأَنَا أَعْمَلُ ؛ رُبَّمَا اضْطَرَّرْتُ أَنْ تَفْعَلَ هَذَا بِنَفْسِكَ يَوْمًا
مَا . »

عُدْتُ إِلَى الْمِنْضَدَةِ وَأَنَا لَا أَزَالُ أَصْلِي مِنْ أَجْلِ بَقَاءِ اللُّؤْلُؤَةِ السَّوْدَاءِ
الْعَظِيمَةِ ، وَدَارَ السَّكِينُ دَوْرَتَهُ وَشَاهَدْتُ عَلَى ضَوْءِ الْمِصْبَاحِ الْقَشْرَةَ
الرَّقِيقَةَ مُلْقَاةً عَلَى الْمِنْضَدَةِ .

وَضَعَ أَبِي اللُّؤْلُؤَةَ أَمَامَ الضَّوْءِ وَأَخَذَ يَقْلِبُهَا عَلَى كُلِّ جَانِبٍ ، ثُمَّ رَفَعَهَا عَالِيًا
فَوْقَ رَأْسِهِ كَمَا لَوْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُرِيَهَا لِلْعَالَمِ أَجْمَعِ .

أَعْطَانِيهَا أَبِي قَائِلًا : « لَقَدْ زَالَتِ الشَّائِبَةُ ، وَفِي يَدِكَ الْآنَ أَعْظَمُ وَأَجْمَلُ
لُؤْلُؤَةٍ فِي الْعَالَمِ . إِنَّهَا لُؤْلُؤَةُ السَّمَاءِ ! »

الفصل العاشر

هدية إلى مُحَفِّ المدينة

كَانَ فِي لَابَازٍ أَرْبَعَةٌ مِنْ كِبَارِ تُجَّارِ اللُّؤْلُؤِ ، بِإِلْضَافَةٍ إِلَى كَثِيرِينَ مِنْ صِغَارِ
التُّجَّارِ الَّذِينَ لَا يَبِيعُونَ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنَ اللُّؤْلُؤِ الصَّغِيرِ .

بَعْدَ أَنْ أَزَالَ أَبِي شَائِبَةَ اللُّؤْلُؤَةِ بِأَسْبُوعٍ تَقْرِيْبًا جَاءَ التُّجَّارُ الْأَرْبَعَةُ إِلَى بَيْتِنَا .
فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ فَكَّرَ أَبِي أَنْ يَأْخُذَ اللُّؤْلُؤَةَ إِلَى مَدِينَةِ مَكْسِيكُو سِيْتِي ، وَلَكِنَّهُ
عَدَلَ عَنْ ذَلِكَ لِصُعُوبَةِ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ هُنَاكَ .

لَمْ يَكُنْ فِي مَدِينَةِ لَابَازٍ تَاجِرٌ وَاحِدٌ ، أَوْ حَتَّى اثْنَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَ
الْمَبْلَغِ الَّذِي نَطْلُبُهُ ثَمَنًا لِلُّؤْلُؤَةِ . وَلَكِنْ كَانَ فِي مَقْدُورِ التُّجَّارِ الْأَرْبَعَةِ فَقَطْ أَنْ
يَدْفَعُوا مَعًا ثَمَنَ اللُّؤْلُؤَةِ .

جَاءَ التُّجَّارُ الْأَرْبَعَةُ فِي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ بَعْدَ الظُّهْرِ وَقَدِ ارْتَدَّوْا أَفْحَمَ
مَلَابِسِهِمْ ، وَحَمَلُوا مَعَهُمْ أَدْوَاتِهِمْ لِوِزْنِ اللُّؤْلُؤَةِ وَقِيَاسِهَا ، وَكَانَتْ نُقُودُهُمْ
مَوْضُوعَةً فِي حَقِيْبَةٍ . وَتَبِعَهُمْ حَشْدٌ مِنَ النَّاسِ وَوَقَفُوا خَارِجَ الْبَوَابَةِ .

عَادَتْ وَالِدَتِي وَشَقِيقَتِي مِنْ مَدِينَةِ لُورِيْتُو بَعْدَ أَنْ سَمِعَتَا بِخَبَرِ اللُّؤْلُؤَةِ ؛ لِذَا
كَانَتْ حُجْرَةُ الْأَسْتِقْبَالِ مَلِيئةً بِالْأَزْهَارِ ، وَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ نَظِيفًا وَبَرَّاقًا .

وَضَعَ الرِّجَالُ حَقِيْبَةَ النُّقُودِ عَلَى الْمِنْضَدَةِ وَجَلَسُوا دُونَ أَنْ يَنْطَقُوا

بِكَلِمَةٍ . التفت أبي إلى حَفِيَّةِ التَّقْوِدِ وَقَالَ : « إِنَّهَا حَقِيَّةٌ صَغِيرَةٌ ، وَأَشْكُ
أَنَّهَا تَسْعُ مَا لَا يَكْفِي لِشِرَاءِ لَوْلُؤَةِ السَّمَاءِ . »

قَالَ أَرْثُورُو مَارْتِن ، وَهُوَ رَجُلٌ ضَخْمٌ ذُو يَدَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ بَيضاوَيْنِ :
« لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ اللَّوْلُؤَةَ فِي حَجْمِ الْبُرْتُقَالَةِ ، وَلَوْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا لَكَانَ مَا
مَعَنَا مِنْ مَالٍ يَزِيدُ عَنْ ثَمَنِهَا . إِنَّ اللَّوْلُؤَ الْكَبِيرَ لَا يُسَاوِي مَبَالِغَ كَبِيرَةٍ . »

أَضَافَ زَمِيلُهُ مِيغِيلُ بِالْأُومَارِيسِ ، وَهُوَ رَجُلٌ بَدِينٌ أَصْلَعُ : « إِنَّ اللَّوْلُؤَ
الْكَبِيرَ لَا يَعِيشُ طَوِيلًا ، وَهُوَ غَالِبًا مَا يَمُوتُ وَيَفْقِدُ بَرِيقَهُ قَبْلَ أَنْ يَمُرَّ عَامٌ
وَاحِدٌ . »

أَجَابَ أَبِي : « هَذَا حَالُ اللَّوْلُؤِ الصَّغِيرِ ، مِثْلُ تِلْكَ اللَّوْلُؤَةِ الَّتِي بَعَثَهَا لَنَا
الشَّهْرُ الْمَاضِي . وَقَبْلَ أَنْ أُرِيكُمْ لَوْلُؤَةَ السَّمَاءِ سَأَذْكُرُ لَكُمْ ثَمَنَهَا . إِنَّهُ عِشْرُونَ
أَلْفَ بِيَزُو . لَا أَقَلَّ وَلَا أَكْثَرَ . »

تَبَادَلَ الرِّجَالُ الْأَرْبَعَةُ النَّظَرَاتِ وَكَانَتْهُمْ كَانُوا مُتَّفِقِينَ عَلَى الثَّمَنِ الَّذِي
سَيَدْفَعُونَهُ .

خَرَجَ أَبِي مِنَ الْحُجْرَةِ وَعَادَ وَمَعَهُ اللَّوْلُؤَةُ مَلْفُوفَةٌ فِي قُمَاشٍ مِنَ الْحَرِيرِ
الْأَبْيَضِ ، وَوَضَعَهَا فَوْقَ الْمِنْضَدَةِ . وَبَعْدَ أَنْ بَسَطَ الْقُمَاشَ وَتَرَجَعَ إِلَى
الْخَلْفِ قَلِيلًا حَتَّى يُشَاهِدَهَا الْجَمِيعُ ، قَالَ : « الْآنَ أَيُّهَا السَّادَةُ ، هَذِهِ هِيَ
لَوْلُؤَةُ السَّمَاءِ ! » وَتَجَمَّعَ الضُّوءُ فِي اللَّوْلُؤَةِ فَعَدَّتْ وَكَانَتْهَا قَمَرٌ مُضِيءٌ .



قَالَ أَرْثُورُو مَارْتِن : « هَذَا مَا كُنْتُ أَخْشَاهُ . إِنَّهَا أَقْرَبُ إِلَى الْبُرْتُقَالَةِ مِنْهَا
إِلَى اللَّوْلُؤَةِ . »

قَالَ بِالْأُومَارِيسِ : « إِنَّهَا كَبِيرَةٌ ، وَلَكِنَّ هَذَا النَّوعَ مِنَ اللَّوْلُؤِ عَادَةً مَا
تَكُونُ حَيَاتُهُ قَصِيرَةً وَمِنْ الصَّعْبِ بَيْعُهُ . »

قَالَ ثَالِثُهُمْ : « وَلَكِنَّا سَوْفَ نَتَقَدَّمُ بِعَرَضٍ . »

قَالَ التَّاجِرُ الرَّابِعُ مُوَكَّدًا : « نَعَمْ سَوْفَ نَتَقَدَّمُ بِعَرَضٍ . »

قَالَ مَارْتِن : « عَشْرَةُ آلَافِ بِيَزُو . »

أَخَذَ بِالْأُومَارِيسِ اللَّوْلُؤَةَ بِيَدَيْهِ الْبَيضاوَيْنِ الصَّغِيرَتَيْنِ وَنَظَرَ إِلَيْهَا بِدِقَّةٍ

قَائِلًا : « أُعْتَقِدُ أَنَّي أَرَى شَائِبَةً . عَشْرَةُ آلَافٍ كَثِيرٌ جِدًّا . »

قَالَ أَبِي : « لَيْسَ بِهَا أَيْةٌ شَائِبَةٌ ، وَالثَّمَنُ كَمَا قُلْتُمْ عِشْرُونَ أَلْفَ بِيْزُو . »
أَخَذَ التُّجَّارُ الْآخَرُونَ يَتَنَاقَلُونَ اللَّوْلُوَّةَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَيَفْحَصُونَهَا جَيِّدًا ،
ثُمَّ قَامَ مَارْتِنُ يَقْيَاسُهَا وَوَزْنُهَا ، وَكَانَتْ الْمَقْيَاسُ مُطَابِقَةً تَقْرِيْبًا لِمَقْيَاسِنَا .

قَالَ : « أَحَدُ عَشَرَ أَلْفَ بِيْزُو . »

قَالَ أَبِي : « أَضِفْ إِلَيْهَا تِسْعَةَ آلَافٍ بِيْزُو . فَأَنْتَ لَمْ تَرَ وَلَنْ تَرَى لَوْلُوَّةَ
مِثْلَهَا . »

قَالَ بِالْأُومَارِيسِ : « اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا . »

وَبَعْدَ سَاعَةٍ مِنَ الزَّمَنِ ارْتَفَعَ الثَّمَنُ إِلَى خَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفًا .

بَدَأَ الْعَضْبُ يَتَمَلَّكُ التُّجَّارَ الْأَرْبَعَةَ . وَأَخْضَرَتْ وَالِدَتِي بَعْضَ الْمَشْرُوبَاتِ
الْبَارِدَةِ وَبَعْضَ قِطْعِ الْكَعْكِ . وَكُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهَا تَقْبَلُ عَرْضَ التُّجَّارِ ، وَرَأَيْتُهَا
فِي الْخَارِجِ تُحَاوِلُ أَنْ تُقْنِعَ أَبِي . فَقَدْ كَانَتْ تُرِيدُ شِرَاءَ عَرَبِيَّةٍ حَمْرَاءَ تُجَرُّهَا
أَرْبَعَةُ جِيَادٍ بَيْضَاءَ شَاهِدَتْهَا فِي لُورِيْتُو .

وَضَعُ ارْتُورُو مَارْتِنُ كَوْبَهُ قَائِلًا : « خَمْسَةُ عَشَرَ أَلْفَ بِيْزُو آخِرُ عَرْضِ
لَنَا . »

رَدُّ أَبِي قَائِلًا : « إِذَا سَاخَذُهَا إِلَى مَكْسِيْكُو سِيْتِي . »

فَقَالَ بِالْأُومَارِيسِ : « لَقَدْ قُمْتُ بِهَذِهِ الرَّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ إِلَى مَكْسِيْكُو سِيْتِي

مِنْ قَبْلِ ، وَلَكِنَّكَ اكْتَشَفْتَ أَنَّ التُّجَّارَ هُنَاكَ لَيْسُوا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِدَفْعِ ائْتِمَانٍ
أَعْلَى مِمَّا تَدْفَعُهَا هُنَا ، فَعُدْتُ بَعْدَ ضِيَاعِ الْوَقْتِ وَتَفَقَّاتِ الرَّحْلَةِ . » وَنَهَضَ
قَائِلًا : « خَمْسَةُ عَشَرَ أَلْفًا وَمِئَتَانِ وَخَمْسُونَ بِيْزُو . هَذَا هُوَ آخِرُ عَرْضِ
لَنَا . »

غَضِبَ أَبِي مِمَّا قَالَهُ بِالْأُومَارِيسِ عَنْ مَكْسِيْكُو سِيْتِي ، وَقَالَ : « رَامُونَ ،
إِذْهَبْ وَاسْتَدْعِ الْعَمَّ غَالَارْدُو . فَلْيَحْضُرْ فَوْرًا مَعَهُمَا كَانَ الْأَمْرُ . إِذْهَبْ
بِسُرْعَةٍ . »

وَجَدْتُ الْعَمَّ غَالَارْدُو نَائِمًا فَأَيْقَظْتُهُ ، وَطَلَبْتُ مِنْهُ مُرَافَقَتِي إِلَى بَيْتِنَا .

عِنْدَمَا بَلَّغْنَا الْمَنْزَلَ سَمِعْتُ ارْتُورُو مَارْتِنُ يَقُولُ : « نَعْرِضُ خَمْسَمِئَةَ
زِيَادَةً . » وَكَانَ رَدُّ أَبِي : « الثَّمَنُ عِشْرُونَ أَلْفَ بِيْزُو . »

سَادَ الصَّمْتُ عِنْدَمَا دَخَلْنَا ، وَكَانَ بِالْأُومَارِيسِ مُمَسِّكًا بِاللَّوْلُوَّةِ ، فَتَوَجَّهَ
إِلَيْهِ أَبِي وَاسْتَرَدَّهَا مِنْهُ ، ثُمَّ التَفَّتْ إِلَى الْعَمِّ غَالَارْدُو وَانْحَنَى لَهُ تَحِيَّةً قَائِلًا :

« إِلَيْكَ لَوْلُوَّةُ السَّمَاءِ ، تُقَدِّمُهَا لَكَ أَنَا وَوَلَدِي ، لِتُقَدِّمَهَا بِدَوْرِكَ إِلَى
مُتَحَفِ الْمَدِينَةِ . »

سَمِعْتُ صُرَاخًا آتِيًا مِنْ خَارِجِ الْغُرْفَةِ ، وَكَانَ وَاضِحًا أَنَّهُ صُرَاخُ أُمِّي
وَشَقِيقَتِي اللَّتَيْنِ كَانَتَا تَحْلُمَانِ بِأَشْيَاءَ تَرْغَبَانِ فِي شِرَائِهَا .

حَمَلَ الرَّجُلُ الْأَرْبَعَةَ أَدَوَاتِهِمْ وَحَقِيْبَةَ التَّقْوِدِ الْكَبِيرَةِ ، وَلَبِسُوا قُبْعَاتِهِمْ

الفصل الحادي عشر اليوم العظيم

بعد خمسة أيام أقيم احتفال كبير في أكبر ميادين لبار لتقديم لؤلؤة



وانصرفوا . ونظرت إلى والدي فخوراً بانتصاره في معركته ضد التجار الأربعة .

حاول العم غالاردو أن يعبر عن شكره فقال : « سنقيم احتفالاً كبيراً بهذه المناسبة . »

وعندما انصرف غالاردو ، دخلت أمي الغرفة والدموع في عينيها وصاحت : « لقد ضاعت اللؤلؤة الجميلة . »

قال أبي : « لم تضع . إنها ستكون في متحف المدينة حتى يشاهدها الجميع ، وتستطيعين أنت أيضاً الذهاب إلى هناك ومشاهدتها . »

قالت : « لا أرغب في مشاهدتها ثانية . لقد قدمتها للمتحف لأنك كنت غاضباً من التجار . »

قال أبي : « إنها هدية من أسرة سالازار وولديه وأحفادهما . وسيسارك الله هذه الأسرة في السماء ، من الآن وإلى الأبد . »

لم تزد والدي شيئاً عما قالت ، ولكن عندما أقيم الاحتفال اعتذرت عن حضوره لشعورها بصداق في رأسها .

السَّما إلى مُتَحِفِ المَدِينَةِ . وَكانَ يَوماً مِنْ أَعْظَمِ أَيَّامِ لَباز . اِمْتِلاءَ المَيدانِ
بِالأَزْهارِ ، وَوَقَّتْ في وَسْطِهِ فَتاةٌ صَغِيرَةٌ جَمِيلَةٌ تُرْتَدِي مَلايِسَ حَرِيرِيَّةٍ
بَيضاءَ ، وَتُزَيِّنُ شَعْرَها بِأَزْهارِ بَيضاءَ ، وَتُمسِكُ بِيْداها اللَّؤلؤةَ السَّوداءَ
العَظيمةَ .

وَغَصَّ المَيدانُ بِالأَزْوارِ ، وَكانَ واضِحاً أَنَّ مَدِينَتنا لَباز لَمْ تَشْهَدْ مِنْ قَبْلُ
مِثْلَ هَذِهِ الحُشودِ . فَقَدْ جاءَ النَّاسُ سِيراً على أَقدامِهِمْ ، وَعلى ظُهورِ حَميرِهِمْ
وَخُيولِهِمْ مِنْ أَمَكانٍ بَعِيدَةٍ مِثْلَ لُوريتو في الشَّمالِ وَسانثو ثوماس في
الجَنوبِ ، وَجاءَ آخرونَ بِالقَواريبِ مِنْ جُزُرِ بَحْرِ قَيرَمِيلِيونَ . وَجاءَ أَيضاً
هُنودٌ مِنْ تِلالِ جِبالِ سِيبِرا مُورينا الموحِشةِ يَرتَدونَ جُلودَ الأَرانِبِ . وَكانَ
الْعَمُّ غالاردو سَعِيداً بِرُؤْيَيْهِمْ .

بَدَأَ الاِحْتِفالُ بِأَنَّ حَمَلوا الفَتاةَ وَساروا بِها حَولَ المَيدانِ مَرَّتَيْنِ ، وَهَمُّ
يُرقُصونَ وَيُغَنُّونَ ، ثُمَّ تَوَجَّهوا بِها إلى البَحْرِ حَيْثُ كانَتْ سَفُنُ سالازار
راسِيَةً . وَكانَ أبِي قَدْ اَعَدَّ ذَلِكَ حَتَّى يَثْبِتَ أَنَّ اللَّؤلؤةَ قَدْ حازَتْ رِضا النَّاسِ ،
وَأنَّ أُسْرَةَ سالازار سَوفَ تَزْدادُ ثِراءً وَقُوَّةً .

وَقَفَ الْعَمُّ غالاردو بِجِوارِ الفَتاةِ ، بَيْنَما اأخَذَ النَّاسُ يَلْتَفُّونَ حَولَهُ .
وَكانَتْ سَفُنُنا الزَّرَقاءُ الحَمْسُ تَقِفُ في مِياهِ الخَلِيجِ اأهادِثَةِ ، وَقَدْ رَئَيْتُها جِبالَ
مِنْ أَعلامِ مُلُوكِةِ .

رَفَعَ الْعَمُّ غالاردو يَدَيْهِ قَائِلاً : « نَدْعُوكَ يا إلهي أَنَّ تُبارِكَ أُسْرَةَ سالازار
الَّتِي شَرَّفَتْ مَدِينَتَها اليَومَ . وَنَأمُلُ أَنَّ يَجِدُوا لُؤلؤةَ كَبيْرةً أُخرى كَالتِّي

قَدَموها لِمُتَحِفِنا ، وَأَنَّ تُبَجَرَ سَفُنُهُمْ إلى أَمَكانٍ صَيِّدِ اللَّؤلؤِ ، وَتَعُودَ سَالمَةً
إلى مَوطِنِها . »

بَعْدَ أَنَّ بارَكَ الْعَمُّ غالاردو السُّفُنَ ، حَمَلَ الْمُحْتَفِلونَ الفَتاةَ إلى المَيدانِ مِنْ
جَدِيدٍ ، وَكانَتْ تُحْمَلُ في يَدِها لُؤلؤةُ السَّما حَتَّى يَراها كُلُّ النَّاسِ . لَقَدْ كانَ
يَوماً رَائعاً شَعَرَ فِيهِ النَّاسُ ، فَقَرَأُوهُمْ وَأَغْنِياؤُهُمْ على السَّواءِ ، أَنَّ اللَّؤلؤةَ مِلْكُ
لَهُمْ .

بَعْدَ أَنَّ اأعادوا الفَتاةَ إلى المَيدانِ ، رَكَعَتْ على رُكْبَتَيَّ وَشَكَرَتْ اللهَ الَّذِي
وَفَّقَنِي في العُثورِ على اللَّؤلؤةِ الَّتِي شَعَرَ الجَميعُ أَنَّها مِلْكُ لَهُمْ .

كُنْتُ أَهْمُ بِمُغادَرَةِ المَيدانِ عِندَما ناداني الإِشْبيليُّ قَائِلاً : « حَقًّا لَقَدْ كانَ
يَوماً عَظيماً كاليَومِ الَّذِي وَجَدْتُ فِيهِ لُؤلؤَتِي في الخَلِيجِ العَرَبِيِّ . لَقَدْ سَمِعْتُ
حِكاياَتَ كَثيرَةٍ عَن لُؤلؤَتِكَ . ما وَزَنُها الحَقِيقِيُّ ؟ »

أَجَبْتُ : « أَكْثَرُ مِنْ سِتِّينَ قِراطاً . » وَفَضَّلْتُ أَنَّ أَذْكَرَ لَهُ الحَقِيقَةُ لِأَنِّي
أَعْرِفُ أَنَّنِي مَهْما قُلْتُ فَسَتَكُونُ لُؤلؤَتُهُ أَكْبَرَ .

قالَ : « كانَتْ لُؤلؤَتِي أَكْبَرَ . هَلْ يُمَكِّنُكَ أَنَّ تَتَحَيَّلَ لُؤلؤةٌ تَمَلأُ يَدَيكَ
الْاِثْنَتَيْنِ ؟ هَكَذا كانَتْ اللَّؤلؤةُ الَّتِي بَعَثَها لِلشَّاهِ مِلْكِ فارِسَ . »

قُلْتُ : « لا شَكَّ أَنَّها لُؤلؤةٌ رَائعةٌ . »

لَمْ أَحْسَ في ذَلِكَ اليَومِ بِنَفْسِ الإِحْساسِ الَّذِي كُنْتُ أَحْسُهُ مِنْ قَبْلُ نَحْوَ
الإِشْبيليِّ وَنَحْوَ قِصَصِهِ . لَقَدْ قالَ يَوماً إِنِّي أَخافُ العَوصَ ، وَهَناكَ قَدْ

غُصْتُ . وَكَانَ يَقُولُ إِنِّي لَنْ أَسْتَطِيعَ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا ، وَهَآنَذَا قَدْ فَعَلْتُ :
وَجَدْتُ لَوْلُوَةَ السَّمَاءِ .

سَأَلْتُهُ : « كَمْ كَانَ وَزْنُ لَوْلُوتِكَ ؟ »

أَجَابَ : « لَقَدْ نَسِيتُ . إِنَّ الْأَوْزَانَ لَا تُهْمُنِي . وَلَكِنْ أَخْبِرْنِي هَلْ كَانَ
بِلَوْلُوتِكَ شَائِبَةٌ ؟ »

أَجَبْتُ : « إِنَّهَا لَيْسَتْ لَوْلُوتِي . »

قَالَ : « أَنَا أَعْرِفُ ذَلِكَ ، وَلَسْتُ مُقْتَنِعًا بِمَا فَعَلْتَ . وَلَكِنْ هَلْ يَتْلِكَ
الْلَوْلُوتَةُ شَائِبَةٌ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « كَلَّا . لَيْسَ بِهَا عَيْبٌ وَاحِدٌ ، وَهِيَ مُسْتَدِيرَةٌ تَمَامًا . »

رَدَّ قَائِلًا : « إِنَّ لَوْلُوَةَ مُسْتَدِيرَةٍ خَالِيَةٍ مِنَ الشَّوَائِبِ وَتَزِنُ سِتِينَ قِيرَاطًا
تُسَاوِي .. حَسَنًا ، إِنَّهَا تُسَاوِي مَبْلَعًا ضَخْمًا مِنَ الْمَالِ . » ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ
خَافِتٍ : « لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّكَ وَجَدْتَهَا فِي خَلِيجِ بَشِلِنِكَ . »

قُلْتُ : « بِالْقُرْبِ مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ . »

سَأَلَنِي : « كَمْ يَبْعُدُ عَنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ ؟ إِلَى الشَّمَالِ ؟ إِلَى الْجَنُوبِ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « فِي مَكَانٍ مَا هُنَاكَ . هَذَا مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَهُ . »
تَصَافَحْنَا ثُمَّ انْصَرَفَ .

كَانَ اللَّيْلُ قَدْ حَلَّ وَعِنْدَمَا اقْتَرَبْتُ مِنْ بَوَايَةِ مَنْزِلِنَا ، بَرَزَ لِي مِنَ الظَّلَامِ رَجُلٌ

وَنَادَانِي بِاسْمِي . لَمْ يَكُنْ سِوَى سُوثُو لُوزُون . سَأَلْتُهُ فِي الْحَالِ : « هَلْ
أَعْجَبَكَ الْإِحْتِفَالُ ؟ »

أَجَابَ : « لَقَدْ شَاهَدْتُ الْفَتَاةَ . شَاهَدْتُهَا فِي الْمِيدَانِ وَفِي الشُّوَارِعِ ،
وَعِنْدَ الْبَحْرِ وَسَمِعْتُ الْجَمِيعَ يُعْنُونَ . » وَرَبَّتْ عَلَى كَتِفِي قَائِلًا : « إِنَّكَ لَا
رَلْتَ صَبِيًا ، وَهُنَاكَ الْكَثِيرُ مِمَّا لَا تَعْرِفُهُ ، لِذَا لَزِمَ أَنْ أَذْكَرَ لَكَ أَنَّ الْلَوْلُوَةَ
لَيْسَتْ لَوْلُوَةَ الْمُتَحِفِ وَلَيْسَتْ لَوْلُوَةَ الْمَدِينَةِ ، وَلَيْسَتْ لَوْلُوَةَ النَّاسِ الَّذِينَ
يُعْنُونَ لَهَا . إِنَّهَا مِلْكُ شَيْطَانِ الْبَحْرِ ، وَسَوْفَ يَسْتَرِدُّهَا يَوْمًا مَا . » ثُمَّ
اسْتَدَارَ وَاخْتَفَى فِي الظَّلَامِ .

كُنْتُ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الْتَالِيِ أُسِيرُ مَعَ أَبِي نَحْوَ الشَّاطِئِ عِنْدَمَا سَأَلَنِي : « هَلْ
يَسْمَحُ لِي لُوزُونُ بِالْبَحْثِ عَنِ الْلَوْلُوَةِ فِي الْبُحَيْرَةِ ؟ »

أَجَبْتُ : « كَلَّا ، وَلَيْسَ فِي اسْتِطَاعَتِي أَنْ أَسْأَلَهُ . »

قَالَ : « إِنَّ الطَّرِيقَ طَوِيلٌ إِلَى سِيرِ الْقَوِ ، وَالْمَرَّةَ الْأَخِيرَةَ الَّتِي ذَهَبْنَا فِيهَا إِلَى
هُنَاكَ لَمْ نَجِدْ سِوَى الْقَلِيلِ مِنَ الْلَوْلُوَةِ . أَمَّا فِي تِلْكَ الْبُحَيْرَةِ فَرُبَّمَا وَجَدْنَا لَوْلُوَةَ
مُمَاتِلَةً لِتِلْكَ الْلَوْلُوَةِ الْعَظِيمَةِ . »

فَأَخْبَرْتُ أَبِي بِمَا دَارَ بَيْنِي وَبَيْنَ لُوزُونِ فِي اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ .

قَالَ : « إِنَّ لُوزُونَ هِنْدِيٌّ عَجُوزٌ سَازِجٌ . »

أَجَبْتُهُ : « رُبَّمَا كَانَ كَذَلِكَ ، وَلَكِنَّهَا بُحَيْرَتُهُ وَلَنْ يَسْمَحَ لَكَ بِالْعُوصِ

لِهَا . »

الفصل الثاني عشر

العاصفة

أبحرت السفن في الصباح التالي إلى جزيرة سيرالفو . كانت تبدو جميلة في طلائها الجديد وأعلامها المرفوعة . وكانت هناك رياح خفيفة تهب من الجنوب ، وبدت السماء زرقاء قاتمة مثل البحر . لقد كان يوماً جميلاً . سكنت الرياح تماماً بعد الظهر وأصبح الجو حاراً جداً ، ثم ما لبثت أن هبت الرياح من الجبال فحقت جدة الحرارة . وعندما حان وقت العشاء سكنت الرياح من جديد ، وكاد الهواء أن يتعدي ، وصعب التنفس ، وتجمعت السحب في السماء .

توقفت أمي عن تناول طعامها ، واتجهت إلى النافذة ونظرت إلى الخارج . كانت دائماً تخشى الجو وتقلباته عندما يكون أبي في البحر .

قلت : « إنها رياح جبلية . »

قالت : « كلا ، إنها الرياح الساخنة . »

إن هذه الرياح العاتية نعرفها ونحشاها جميعاً . وتبدأ عادة بهذه الطريقة .

خرجت إلى الطريق ونظرت إلى السماء ، لم أر بها نجمة واحدة .

واستمرت الرياح تهب حاملة معها رائحة البحر . وعذت لأتناول عشاءي ، وكنا نسمع صفير الرياح بين الأشجار ونحن نتناول الطعام . ونهضت من مكاني وتوجهت نحو الباب كي أغلقه ، وما كدت أخطو خطوتين حتى انغلق الباب بشدة وانطفأ المصباح . وحاولت أن أشعله ولكن الهواء الذي كان يتسرب من بين قضبان النافذة حال دون إشعاله ، فقالت أمي بصوت خفيض : « الرياح الساخنة ! »

تممت أختي : « الرياح الساخنة ! »

ذهبت إلى النافذة ونظرت منها ، فلم أر في السماء نجمة واحدة . وكان صوت الرياح أشبه بصرخات خوف يطلقها ألف طائر من الطيور البحرية .

قلت : « لا بد أن سفننا أحست بالعاصفة وهي قادمة فتوجهت إلى خليج بشيلنك أو إلى أي خليج من الخلجان الآمنة ، وهي كثيرة وممتشرة بيننا وبين جزيرة سيرالفو . »

نهضت والدتي وحاولت فتح الباب ، ثم صرخت قائلة : « ساعدني . »

قلت : « لن نستطيعي أن تتجاوزي الفناء حتى ولو حبوت على يديك وركبتك . إن السفن في أمان ، فلا تخافي . معهم أعظم ربان عرفه البحر ، وكم اجتاز من عواصف ! »

ارتفع صفير الرياح لدرجة لم نستطع معها سماع أصواتنا ، فجلسنا متجاورين حول المائدة في الغرفة المظلمة ولم نحاول الكلام . وجاءت

الْخَادِمَاتُ الْهِنْدِيَّاتُ مِنَ الْمَطْبَخِ وَجَلَسْنَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَى جِوَارِنَا . كَانَ زَوْجَا
اِثْنَتَيْنِ مِنْهُنَّ يَعْمَلَانِ فَوْقَ سَفِينَا .

اسْتَمَرَّتِ الْعَاصِفَةُ حَتَّى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، وَخَفَّتْ شِدَّةُ الرِّيحِ قُبَيْلَ الْفَجْرِ ،
ثُمَّ سَكَتَتْ تَمَامًا عِنْدَ طُلُوعِ النَّهَارِ . وَذَهَبْنَا جَمِيعًا إِلَى الْشَّاطِئِ لِاسْتِقْبَالِ
السُّفُنِ الْعَائِدَةِ . وَكَانَ مِنْ آثَارِ الْعَاصِفَةِ امْتِلَاءُ الْفِنَاءِ بِأَوْرَاقِ الْأَشْجَارِ
الْمُتَسَاقِطَةِ ، وَكَذَلِكَ امْتِلَاءُ الْمِيدَانِ بِأَحْجَارِ سُقُوفِ الْبُيُوتِ الْمُجَاوِرَةِ .

بَيْنَمَا كُنَّا نُسْرِعُ إِلَى الشَّاطِئِ لِحِقِّ بِنَا أَعْدَادَ كَبِيرَةٍ مِنَ النَّاسِ ، كَانَ لِكُلِّ
وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجٌ أَوْ أَخٌ أَوْ صَدِيقٌ يَعْمَلُ عَلَى سَفِينَا .

كَانَ الشَّاطِئُ مُغَطًى بِالْأَغْصَابِ الْبَحْرِيَّةِ وَالْأَسْمَاكِ الْمَيِّتَةِ . وَقَدْ قَدَفَتْ
الْأَمْوَاجُ بِالزَّوَارِقِ الرَّاسِيَةِ بِالْخَلِيجِ عَلَى الرَّمَالِ . وَكَانَ مِنَ الْمَالُوفِ قَبْلَ
هُبُوبِ الْعَاصِفَةِ إِخْرَاجُ الزَّوَارِقِ مِنَ الْمَاءِ وَرَبْطُهَا إِلَى الصُّخُورِ عَلَى الشَّاطِئِ ،
وَقَدْ حَالَ هُبُوبُ الْعَاصِفَةِ الْمُفَاجِئُ دُونَ ذَلِكَ .

كَانَ الْعَمُّ غَالِرْدُو قَدْ أَسْرَعَ إِلَى الشَّاطِئِ بِشَعْرِهِ الْأَبْيَضِ وَعِبَائَتِهِ الْمَرْفُوعَةِ
إِلَى مَا فَوْقَ رُكْبَتَيْهِ .

قَالَ : « سَتَعُودُ السُّفُنُ حَالًا . إِنَّ اللَّهَ يَرْعَاهَا . لَا تُوجَدُ خُلُجَانُ قَرْيَةٍ مِنْ
هُنَا ، لِذَا رُبَّمَا لَا تَصِلُ قَبْلَ الظُّهْرِ . عُودُوا إِلَى بُيُوتِكُمْ آلَانَ مُطْمَئِنِّينَ ،
وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ ، وَانْتَظِرُوا . »

لَمْ يَنْصَرِفْ أَحَدٌ وَانْقَضَى الصَّبَاحُ وَكَذَا الظُّهْرُ ، وَلَمَّا حَلَّ الْغُرُوبُ



شَاهِدَ أَحَدُهُمْ زَوْرَقًا بَعِيدًا فِي الْبَحْرِ . وَعِنْدَمَا اقْتَرَبَ وَاسْتَدَارَ نَحْوَ الْخَلِيجِ
عَرَفَتْ أَنَّهُ لُوزُونٌ فِي قَارِيَةِ الْأَحْمَرِ .

شَدُّ لُوزُون قَارِبُهُ إِلَى الشَّاطِئِ بَعِيدًا عَنِ الْجُمُوعِ الْمُحْتَشِدَةِ هُنَاكَ ، ثُمَّ
جَلَسَ فَتَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ وَسَأَلَتْهُ : « هَلْ شَاهَدْتَ أَيًّا مِنَ السُّفُنِ ؟ »

أَشْعَلَ سِجَارَةً ، وَأَخَذَ يُدَخِّنُ لِحَظَةً ثُمَّ قَالَ : « لَمْ أَرِ سَفُنَكُمْ وَلَنْ أَرَاهَا
أَبَدًا ، وَأَنْتِ أَيْضًا لَنْ تَرَاهَا ثَانِيَةً . »

أَغْضَبَنِي قَوْلُهُ هَذَا ، فَسَأَلْتُهُ : « أَتَعْنِي أَنَّ شَيْطَانَ الْبَحْرِ قَدْ حَطَمَهَا ؟ »
أَجَابَ : « كَلَّا ! أَنَا لَمْ أَقُلْ ذَلِكَ . الْعَاصِفَةُ هِيَ الَّتِي فَعَلَتْ ذَلِكَ ، وَلَنْ
تَرَاهَا أَبَدًا . »

سَأَلْتُهُ : « هَلْ تَعْنِي أَنَّ شَيْطَانَ الْبَحْرِ هُوَ الَّذِي أَثَارَ الْعَاصِفَةَ ؟ »

لَمْ يُجِبْ ، فَابْتَعَدْتُ عَنْهُ غَاضِبًا ، وَعُدْتُ إِلَى حَيْثُ تَجَمَّعَ النَّاسُ .

عِنْدَمَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ ، كَانَ لُوزُون مَا زَالَ جَالِسًا يُدَخِّنُ السَّجَائِرَ وَيَنْتَظِرُ .
أَشْعَلْنَا نَارًا ، وَالتَّفْنُ حَوْلَهَا ، وَتَرَايَدَ عَدَدُ النَّاسِ وَأَحْضَرَ لَنَا بَعْضُ الْأَصْدِقَاءِ
طَعَامًا وَمَاءً مِنَ الْمَدِينَةِ .

إِنْصَرَفَ بَعْضُ النَّاسِ ، وَلَكِنَّا أَبْقَيْنَا عَلَى النَّارِ مُشْتَعِلَةً حَتَّى تُرْشِدَ السُّفُنَ
لِلْوُصُولِ إِلَى لَابَازٍ فِي أَمَانٍ .

عِنْدَمَا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ كَانَتِ السَّمَاءُ صَافِيَةً وَكَانَ الْبَحْرُ هَادِئًا . وَبَدَتْ
الْجُزُرُ الثَّانِيَّةُ كَمَا لَوْ كَانَتْ قَرْيَةً وَفِي مُتَنَاوِلِ الْيَدِ . وَبِمُجَرَّدِ أَنْ أَشْرَقَتِ
الشَّمْسُ أَشَارَ صَبِيٍّ ، كَانَ يَجْلِسُ عَلَى جِدَارِ صَدِّ أَمْوَاجِ الْبَحْرِ ، بِيَدِهِ نَحْوُ

الْجَنُوبِ ، وَعِنْدَمَا نَظَرْتُ إِلَى هُنَاكَ شَاهَدْتُ رَجُلًا يَسِيرُ مُتَرَنَّحًا عَلَى
الشَّاطِئِ . كَانَ يَقَعُ مَرَّةً ، وَيَظُلُّ سَاكِئًا ثُمَّ يَنْهَضُ وَيَسْتَأْنِفُ التَّحْرُكَ عَلَى يَدَيْهِ
وَرُكْبَتَيْهِ ، ثُمَّ يَنْهَضُ وَاقِفًا . فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ظَنَنْتُ أَنَّهُ رَجُلٌ ثِمَلٌ قَادِمٌ مِنَ
الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ تَبَيَّنْتُ أَنَّهُ لَا يَرْتَدِي قَمِيصًا ، وَأَنَّ وَجْهَهُ مُلَطَّخٌ بِالْدمَاءِ . سَقَطَ
الرَّجُلُ ثَانِيَةً وَرَقَدَ هُنَاكَ بَعْضَ الْوَقْتِ ، ثُمَّ نَهَضَ وَأَقْبَلَ نَحُونَا .

عِنْدَمَا اقْتَرَبَ عَرَفْتُهُ ، فَرَكَضْتُ نَحْوَهُ .. إِنَّهُ الْإِشْبِيلِيُّ . وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ
إِلَيْهِ سَقَطَ عَلَى قَدَمِي ، ثُمَّ نَهَضَ مِنْ جَدِيدٍ وَنَظَرَ إِلَيَّ . كَانَتْ عَيْنَاهُ مُخِيفَتَيْنِ .

قَالَ : « ضَاعَتْ ! ضَاعَتْ ! ضَاعَتْ السُّفُنُ ! » ثُمَّ سَقَطَ عَلَى الرَّمَالِ
يَتَمَتُّ بِكَلَامٍ لَمْ أَفْهَمُهُ .

الفصل الثالث عشر

اختفاء اللؤلؤة

فَقَدَ اثْنَانِ وَثَلَاثُونَ رَجُلًا مِنْ رِجَالِنَا مَعَ سُفِينَا ، وَتَجَا رَجُلٌ وَاحِدٌ فَقَطْ - الإشبيلي .

فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ بَعْدَ الْعَاصِفَةِ أُقِيمَتْ صَلَاةٌ لِلْمَوْتَى . وَتَوَافَدَ النَّاسُ مِنَ الْمَدِينَةِ وَمِنَ التَّلَالِ . كَانَ كُلُّ مِنْهُمْ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ قَائِلًا :

« يَا لِلْعَرَايَةِ ! إِنَّ أَهَمَّ حَدِيثَيْنِ فِي تَارِيخِ مَدِينَةِ لَابَازٍ قَدْ وَقَعَا فِي أَقَلِّ مِنْ شَهْرٍ : أَوَّلُهُمَا الْعُثُورُ عَلَى اللُّؤْلُؤَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَثَانِيَهُمَا الْعَاصِفَةُ الَّتِي حَطَّمَتِ السُّفْنَ وَقَتَلَتْ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الرِّجَالِ . » وَشَعَرَ الْكَثِيرُونَ - وَإِنْ لَمْ يُصْرَحْ بِذَلِكَ أَحَدٌ - بِارْتِبَاطٍ وَثِيقٍ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ .. ارْتِبَاطٌ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ فَهْمَهُ .

كُنْتُ أَنَا أَحَدُ مَنْ كَانَ لَدَيْهِمْ هَذَا الْإِحْسَاسُ . جَلَسْتُ بِجِوَارِ الْوَدْيِ نَسْتَمِعُ إِلَى حَدِيثِ الْعَمِّ غَالَارْدُو فِي ذَلِكَ الصَّبَاحِ الْحَزِينِ . لَمْ أَصْنَعْ لِحَدِيثِهِ تَمَامًا ، وَكَانَ يَتَحَدَّثُ عَنْ أَبِي وَخِدْمَاتِهِ وَهَدَايَاهُ الْعَدِيدَةِ لِلْمَدِينَةِ وَبِصِفَةِ خَاصَّةِ اللُّؤْلُؤَةِ الْعَظِيمَةِ .

غَادَرْتُ الْمَكَانَ وَتَحَدَّثْتُ مَعَ بَعْضِ أَصْدِقَائِي ، وَجَاءَ الْإِشْبِيلِيُّ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِي . بَيْنَمَا أَنَا وَاقِفٌ شَاهِدٌ سَوُوهُ لُوزُونٌ يَقِفُ بَعِيدًا . كَانَ يَنْظُرُ إِلَى النَّاسِ ، وَهُمْ يُغَادِرُونَ الْمَكَانَ ، لَمْ يَنْظُرْ إِلَيَّ أَبَدًا . وَعِنْدَمَا تَرَكْتُ

الْإِشْبِيلِيُّ ، سَمِعْتُ وَقَعَ خُطُوبَاتٍ خَلْفِي ، وَلَمَّا التَّفْتُ شَاهَدْتُهُ عَلَى بُعْدٍ مِثْرٍ وَاحِدٍ فَقَطْ .

قَالَ : « أَقُولُ لَكَ مِنْ جَدِيدٍ إِنَّ اللُّؤْلُؤَةَ مِلْكٌ لِشَيْطَانِ الْبَحْرِ ، وَأَقُولُ هَذَا لِأَنَّكَ أَنْتَ الَّذِي وَجَدْتَهَا . »

لَمْ أُجِبْهُ ، وَاتَّخَذْتُ طَرِيقِي بَيْنَ النَّاسِ قَاصِدًا مَنَزَلِي لِأَنْضَمَّ إِلَى الْوَدْيِ وَشَقِيقَتِي . وَلَكِنِّي عُدْتُ لِأَتَحَدَّثَ إِلَى الْعَمِّ غَالَارْدُو فَلَمْ أَجِدْهُ فِي أَيِّ مَكَانٍ . تَوَجَّهْتُ إِلَى مُتَحِفِ الْمَدِينَةِ وَأَنَا أَفْكُرُ فِي السُّفْنِ الَّتِي تَحَطَّمَتْ فِي الْبَحْرِ وَفِي أَبِي الَّذِي فَقَدْتُهُ ، وَفِيمَا قَالَهُ لُوزُونٌ ، وَوَقَفْتُ أَنْظُرَ إِلَى اللُّؤْلُؤَةِ . وَتَلَفْتُ حَوْلِي فَلَمْ أَرِ أَحَدًا وَنَادَيْتُ عَلَى الْعَمِّ غَالَارْدُو فَلَمْ أَتَلَقَّ جَوَابًا . فَمَدَدْتُ يَدِي بِسُرْعَةٍ وَأَخَذْتُ اللُّؤْلُؤَةَ وَوَضَعْتُهَا فِي جَيْبِي ثُمَّ غَادَرْتُ الْمُتَحِفَ .

كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنِّي أَغْلَقْتُ الْبَابَ الْكَبِيرَ عِنْدَمَا دَخَلْتُ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مَفْتُوحًا . خَرَجْتُ وَخُطُوبَاتُ خُطُوبَتَيْنِ وَوَجَدْتُنِي أَوَاجَهُ الْإِشْبِيلِيِّ .

قَالَ : « لَقَدْ كُنْتُ عَائِدًا لِأَلْتَقِطَ قُبْعَتِي ، هَذَا إِذَا لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ لُصُوصِ الْمَدِينَةِ قَدْ سَرَقَهَا . »

أَفْسَحْتُ لَهُ الطَّرِيقَ لِيَمُرَّ . وَنَظَرُ إِلَيَّ فَلَمْ أَهْتَمَّ ، وَوَاصَلْتُ سَبْرِي . وَتَسَاءَلْتُ فِي نَفْسِي : « هَلْ رَأَى الشَّيْءَ الثَّقِيلَ الْكَبِيرَ الَّذِي فِي جَيْبِي ؟ هَلْ أَذْرَكَ أَنَّهُ اللُّؤْلُؤَةُ ؟ »

فِي الْمَسَاءِ اكْتَشَفَ حَارِسُ الْمُتَحِفِ اخْتِفَاءَ اللُّؤْلُؤَةِ . وَكَانَتْ أُمِّي تَكْتُبُ خِطَابًا عِنْدَمَا سَمِعَتْ دَقًّا غَنِيْفًا عَلَى بَابِ بَيْتِنَا ، فَالْقَتِ الْقَلَمَ جَانِبًا وَفَتَحَتْ

الْبَابُ لِيَدْخُلَ الْعَمُّ غَالَارِدُو صَائِحًا : « لَقَدْ اخْتَفَتِ اللَّوْلُوءَةُ ! اخْتَفَتْ ! »
سَأَلَتْهُ مِنْدَهْشَةً : « اخْتَفَتْ ؟ »
أَجَابَهَا قَائِلًا : « سُرِقَتْ ! »

فَفَزَتْ مِنْ مَكَانِي وَتَبِعْتُهُ إِلَى الْمُتَحِفِ . كَانَ النَّاسُ قَدْ تَجَمَّعُوا فِي الْخَارِجِ ،
فَقَادَنِي إِلَى حَيْثُ كَانَتِ اللَّوْلُوءَةُ مَوْضُوعَةً .

قَالَ أَحَدُهُمْ : « إِنِّي أَعْرِفُ الْهِنْدِيَّ الَّذِي سَرَقَهَا . »

قَالَ آخَرُ : « شَاهَدْتُ رَجُلًا غَرِيبًا يَتَّبَعُهُ مُسْرِعًا عَنِ الْمُتَحِفِ . »

أَصْغَيْتُ ، عَلَى حِينِ كَانَتِ النِّسَاءُ يَبْكِينَ ، وَالْعَمُّ غَالَارِدُو يَدْعُو اللَّهَ
بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ أَنْ يَجِدُوا اللَّوْلُوءَةَ . وَكِدْتُ أَقُولُ : « أَنَا أَخَذْتُ اللَّوْلُوءَةَ .
إِنِّهَا فِي غُرْفَتِي ، أَخْفَيْتُهَا فِي فِرَاشِي . ائْتِظَرُوا حَتَّى أَذْهَبَ وَأُحْضِرَهَا . » ثُمَّ
فَكَّرْتُ فِي السَّقَنِ الَّتِي فَقَدْنَاهَا . وَسَمِعْتُ مِنْ جَدِيدِ صَوْتِ لُوزُونٍ يَتَرَدَّدُ فِي
سَمْعِي : « اللَّوْلُوءَةُ مِلْكٌ لِشَيْطَانِ الْبَحْرِ . لَقَدْ آتَى وَأَخَذَهَا . »

انْصَرَفْتُ فِي هُدُوءٍ ، وَتَنَاوَلْتُ عَشَائِي ، ثُمَّ أَخْفَيْتُ اللَّوْلُوءَةَ تَحْتَ قَمِيصِي
وَأَتَجَهْتُ إِلَى الشَّاطِئِ سَالِكًا مَمْرًا صَغِيرًا حَتَّى لَا يَرَانِي أَحَدٌ . وَوَجَدْتُ قَارِبًا
أَعْرِفُ صَاحِبَهُ . كَانَ قَارِبٌ تَجْدِيفٌ ، وَمَجَازِفُهُ ثَقِيلَةٌ وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ
غَيْرُهُ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ اسْتِخْدَامِهِ .

عِنْدَمَا بَزَغَ الْقَمَرُ ، أَتَجَهْتُ نَحْوَ الْبَحِيرَةِ حَيْثُ يَعِيشُ شَيْطَانُ الْبَحْرِ ،
وَكَمَا قَالَ لُوزُونُ : « شَيْطَانُ الْبَحْرِ يَعِيشُ هُنَا فِي هَذِهِ الْبَحِيرَةِ . »

وَالآنَ آمَنْتُ بِصِدْقِ قَوْلِهِ .

الفصل الرابع عشر

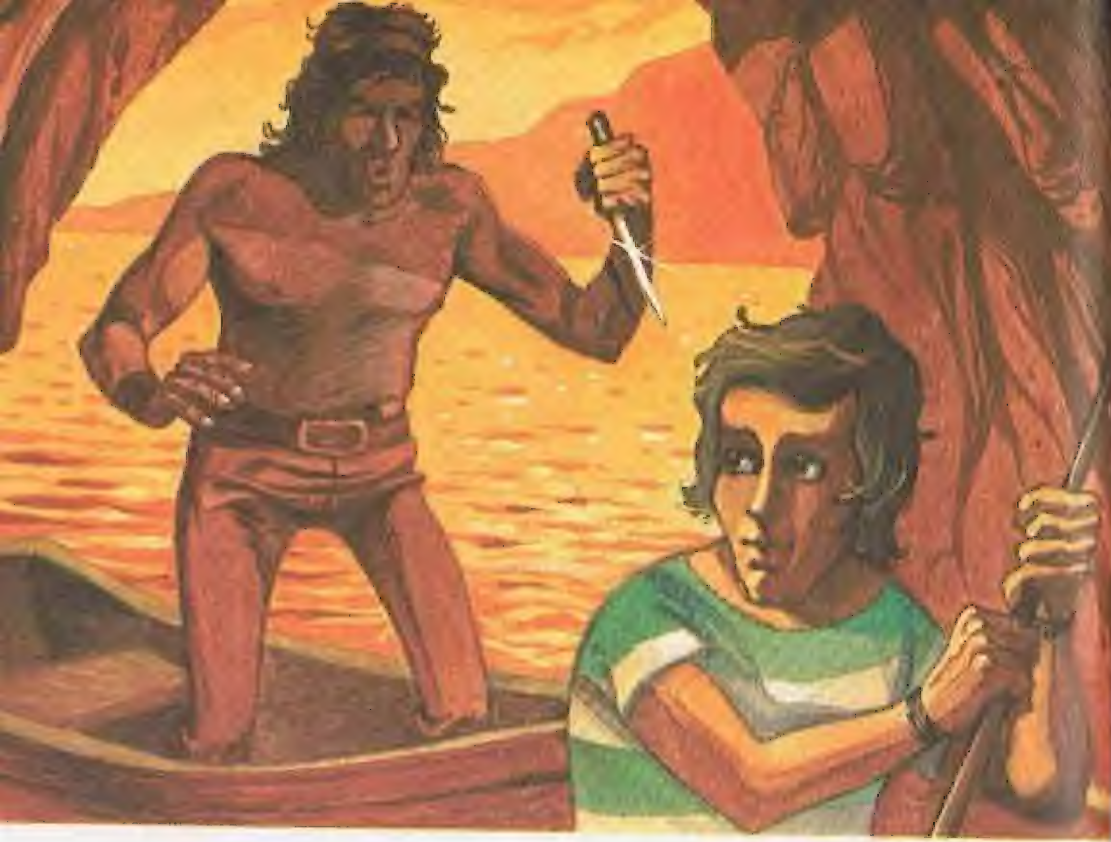
الإشيلي يتبعني

وَصَلْتُ إِلَى مَدْخَلِ الْبَحِيرَةِ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ ، وَبَلَغْتُ الصُّخُورَ
وَالْكَهْفَ . كَانَ الضُّبَابُ الْأَحْمَرُ الْكَثِيفُ يَحْجُبُ الْبَحِيرَةَ تَمَامًا لِلدَّرَجَةِ
تَعَذَّرَتْ مَعَهَا رُؤْيَةُ الشَّاطِئِ الْبَعِيدِ حَيْثُ يُقِيمُ لُوزُونُ ، ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتًا
وَأَحْسَسْتُ أَنَّ شَيْئًا مَا أَوْ شَخْصًا مَا خَلْفِي .

لَمْ أَفَكِّرْ كَثِيرًا فِي شَيْطَانِ الْبَحْرِ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ ، وَلَمْ أَشْعُرْ بِالْخَوْفِ عِنْدَ
التَّفَكُّيرِ فِيهِ ، أَمَّا لُوزُونُ فَقَدْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَيِّرَ شَكْلَهُ وَيُصْبِحَ
رَجُلًا يَذْهَبُ إِلَى الْمَدِينَةِ أَوْ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ . كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ لَهُ أَصْدِقَاءَ مِنْ سَمَلِكِ
الْقِرَشِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَسْمَاكِ تَحْكِي لَهُ كُلَّ شَيْءٍ تَرَاهُ . إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ
فَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُدْرِكَ أَنَّنِي أُحْضِرُ مَعِيَ اللَّوْلُوءَةَ كَيْ أُعِيدَهَا إِلَى كَهْفِهِ . وَلَكِنِّي
كُنْتُ أَتَطَّلَعُ أحيانًا حَوْلِي وَأَنَا أَجْدِفُ فِي اللَّيْلِ بَحْثًا عَنْ هَذَا الْكَائِنِ الْعِمْلَاقِ ،
وَأَسْأَلُ نَفْسِي وَقَدْ ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ نِصْفُ آيَتِسَامَةِ : « هَلْ أَوْ مِنْ يَهَذَا أَمْ
لَا ؟ »

سَمِعْتُ الصَّوْتَ خَلْفِي مِنْ جَدِيدِ وَسَطِ الضُّبَابِ ، ثُمَّ تَبَيَّنَتْ صَوْتًا أَعْرِفُهُ
جَيِّدًا . قَالَ : « صَبَاحَ الْخَيْرِ يَا رَامُون . إِنَّكَ تُجَدِّفُ بِبُطْءٍ . لَقَدْ تَبِعْتُكَ مِنْ
لَابَازٍ ، وَنِمْتُ مُعْظَمَ اللَّيْلِ وَأَنَا أَتَنْتَظِرُكَ . هَلِ اللَّوْلُوءَةُ ثَقِيلَةٌ جَدًّا ؟ »

قُلْتُ : « أَيْهَ لَوْلُوءَةٍ ؟ »



ضَحِكَ الْإِسْبِيلِيُّ قَائِلًا : « أَغْنِي بِطَبِيعَةِ آخَالِ اللَّوْلُؤَةِ الْعَظِيمَةِ . أَنَا أَعْرِفُ أَنَّكَ سَرَقْتَهَا . لَقَدْ وَقَفْتُ عِنْدَ بَابِ الْمُتَحَفِ وَرَأَيْتُكَ تُسْرِقُهَا ، ثُمَّ تَبَيَّنْتُ شَكْلَهَا فِي جَيْبِكَ عِنْدَمَا غَادَرْتُ الْمُتَحَفَ . وَلَعَلَّكَ تُسَالِّئِي : لِمَاذَا كُنْتُ تُرَافِقُنِي ؟ لَقَدْ رَاقَبْتُكَ لِأَنِّي ذَهَبْتُ لِاسْرِقِ اللَّوْلُؤَةَ ، أَيُدهِشُكَ هَذَا ؟ »

قُلْتُ : « كَلَّا ، لَا يُدهِشُنِي . »

ضَحِكَ وَقَالَ : « لِصَانِ ! وَآلَانَ يَسْتَطِيعُ كِلَانَا أَنْ يَقُولَ الْحَقِيقَةَ . هَلِ اللَّوْلُؤَةُ مَعَكَ ؟ »

لَمْ أَسْتَطِعْ رُؤْيَتَهُ لِكَثَافَةِ الضُّبَابِ ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ تَحْدِيدَ مَكَانِ قَارِيهِ .

سَأَلْنِي : « إِذَا لَمْ تَكُنْ مَعَكَ اللَّوْلُؤَةُ ، أَخْبِرْنِي : هَلِ هَذَا هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي وَجَدْتَهَا فِيهِ ؟ أَجِبْ عَنِ السُّؤَالَيْنِ وَقُلِ الْحَقَّ . »

انْقَشَعَ الضُّبَابُ قَلِيلًا وَتَبَيَّنْتُ أَنِّي كُنَّا . كَانَ الْإِسْبِيلِيُّ بَيْنِي وَبَيْنَ كَهْفِ شَيْطَانِ الْبَحْرِ . كَانَ أَقْرَبَ بِكَثِيرٍ مِمَّا كُنْتُ أَتَصَوَّرُ ، وَكَانَ مُمَسِكًَا بِسِكِّينَ فِي يَدِهِ . تَبَادَلْنَا النَّظَرَاتِ ، وَأَدْرَكْتُ مِنْ مَلَامِجِ وَجْهِهِ أَنَّهُ يَتَوَى اسْتِخْدَامَهُ لَوْ لَزِمَ الْأَمْرُ ، فَجَلَسْتُ وَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا .

قَالَ : « لَا أَعْتَقِدُ أَنَّكَ أَخْطَأْتَ بِسَرِقَةِ اللَّوْلُؤَةِ الْعَظِيمَةِ ، إِذْ لَيْسَ لَهَا فَائِدَةٌ هُنَاكَ . وَلَوْ كُنْتُ قَدْ أُعْطِيتُهَا لِلشَّيْطَانِ لَمَا كَانَ هُنَاكَ فَرْقٌ ، وَأَنْتِ بِالطَّبِيعِ تُرِيدُ أَنْ تُحَفِظَ بِسِرِّ الْمَكَانِ الَّذِي وَجَدْتَهَا فِيهِ . هَيَّا أُعْطِنِي اللَّوْلُؤَةَ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ سَوْفَ نَتَحَدَّثُ عَنْ أَشْيَاءَ أُخْرَى . »

أَبْعَدَ السَّكِّينَ ، وَحَرَكَ قَارِيَهُ حَتَّى لَمَسَ قَارِيِي ، وَمَدَّ يَدَهُ كَيْ يَأْخُذَ اللَّوْلُؤَةَ . كَانَ الْكَهْفُ مُظْلِمًا وَلَمْ يَكُنْ بَعِيدًا ، فَقَدْ رَأَيْتُهُ بِوُضُوحٍ . وَأَخْرَجْتُ اللَّوْلُؤَةَ مِنْ قَمِيصِي كَمَا لَوْ كُنْتُ أُعْتَرِضُ إِعْطَاءَهَا لَهُ ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا مَدَّ يَدَهُ لِيَأْخُذَهَا قَذَفْتُ بِهَا فِي الْهَوَاءِ لِتَسْقُطَ خَلْفَهُ فِي الْمَاءِ ، أَيُّ عِنْدَ مَدْخَلِ الْكَهْفِ .

كَانَ مِنَ السُّخْفِ أَنْ أَفْعَلَ هَذَا ، فَبِمُجَرَّدِ أَنْ قَذَفْتُ اللَّوْلُؤَةَ ، كَانَ الْإِسْبِيلِيُّ فِي الْبَحْرِ يَسْبَحُ تَحْتَ الْمَاءِ . وَأَمْسَكْتُ بِالْمُجْدَافَيْنِ وَأَدْرْتُ الْقَارِبَ بَعِيدًا . فَقَدْ قَصَدْتُ أَنْ أَجْدَفَ حَتَّى أَصِلَ إِلَى نِهَایَةِ الْبَحِيرَةِ وَأَطْلُبَ الْعَوْنَ مِنْ

لُوزُون . وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ أَتِمَّكَ مِنْ ذَلِكَ طَفَا الْإِشْبِيلِيُّ فَوْقَ الْمَاءِ ، وَأَمْسَكَ
بِأَحَدِ الْمَجْدَافَيْنِ ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى حَافَةِ الْقَارِبِ . كَانَتْ اللَّوْلُؤَةُ السَّوْدَاءُ
الْكَبِيرَةُ فِي يَدِهِ .

قَالَ : « لَقَدْ أَقْبَيْتَهَا لِلشَّيْطَانِ . » ثُمَّ صَعِدَ إِلَى الْقَارِبِ قَائِلًا : « وَآلَانَ
لِتَبْحَثَ عَنْ قَارِبِي . »

كَانَ قَارِبُهُ قَدْ تَحَرَّكَ بَعِيدًا . كَانَ أَصْغَرَ مِنْ قَارِبِي ، وَعِنْدَمَا وَصَلْنَا إِلَيْهِ
وَجَدْتُهُ مَمْلُوءًا بِالطَّعَامِ وَأَنْيَةِ الْمِيَاهِ وَأَدْوَاتِ الصَّيْدِ وَخَرِيَّةٍ يَسْتُخْدِمُهَا فِي
مُوَاجَهَةِ الْأَسْمَاكِ الضَّخْمَةِ .

قَفَزَ إِلَى قَارِبِهِ قَائِلًا : « هَيَّا ! » وَلَمْ أَتَحَرَّكْ ، فَصَاحَ مَرَّةً أُخْرَى : « هَيَّا !
أَمَامَنَا طَرِيقٌ طَوِيلٌ . »

قُلْتُ لَهُ : « سَأُجْذِفُ حَتَّى الشَّاطِئِ . إِنْ لَدَيَّ عَمَلًا مَعَ سُوءِ لُوزُون . »
أَخْرَجَ الْإِشْبِيلِيُّ سِكِّينَهُ ، فَتَنَظَّرْتُ إِلَى الشَّاطِئِ الْبَعِيدِ : كُنْتُ أَمُلُ أَنْ
يَكُونَ لُوزُون قَدْ سَمِعَ حَدِيثَنَا وَجَاءَ لِيَرَى مَنْ نَكُونُ ، وَلَكِنْ كَانَ الضَّبَابُ
الْأَحْمَرُ مَا زَالَ يَحْجُبُ الشَّاطِئَ ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ رُؤْيَتَهُ .

قَالَ الْإِشْبِيلِيُّ وَهُوَ يُمَسِّكُ سِكِّينَهُ اسْتِعْدَادًا لِطَعْنِي : « هَيَّا ! »

اضْطَرَرْتُ إِلَى أَنْ أَطِيعَهُ ، وَانْتَقَلْتُ إِلَى قَارِبِهِ وَجَلَسْتُ فِيهِ مُمَسِّكًا
بِالْمَجْدَافَيْنِ ، أَمَّا هُوَ فَقَدْ خَلَعَ قَمِيصَهُ وَوَضَعَ فِيهِ اللَّوْلُؤَةَ ، وَأَمَرَنِي أَنْ
أُجْذِفَ .

بَدَأَ الضَّبَابُ يَرْتَفِعُ فَوْقَ الْمَاءِ ، فَالْقَيْتُ نَظْرَةً أُخِيرَةً عَلَى الشَّاطِئِ ، لَكِنْ لَمْ
يَكُنْ هُنَاكَ أَحَدٌ . وَشَعَرْتُ بِطَرَفِ السَّكِّينِ يَنْغَرِزُ فِي ظَهْرِي ، فَالْتَقَطْتُ
الْمَجْدَافَيْنِ وَبَدَأْتُ أُجْذِفُ . أَمَرَنِي بِالتَّجْدِيفِ نَحْوَ الْبَحْرِ لِنَذْهَبَ إِلَى مَدِينَةِ
غَوَائِمَاسَ ، وَعِنْدَمَا سَأَلْتُهُ قَالَ : « سَنَبِيعُ اللَّوْلُؤَةُ الْعَظِيمَةُ ، وَسَتَجِيءُ مَعِي ،
لِأَنَّ اسْمَ سَالَا زَارَ مَعْرُوفٌ لَدَى تِجَارِ اللَّوْلُؤِ هُنَاكَ ، وَبِهَذَا سَنَبِيعُهَا بِعَشْرَةِ
أَضْعَافٍ مَا كُنْتُ سَاحْصِلٌ عَلَيْهِ لَوْ بَعَثْتُهَا وَحْدِي . »

سَمِعْتُهُ يَتَنَاوَلُ مَجْدَافِيهِ وَيُلْقِي بِهِمَا فِي الْمَاءِ ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « الْآنَ
أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْفِزَ إِلَى الْمَاءِ وَأَسْبَحَ إِلَى أَقْرَبِ مَكَانٍ مِنَ الشَّاطِئِ . »

وَيَبْدُو أَنَّهُ عَرَفَ مَا يَدُورُ فِي رَأْسِي ، لِأَنِّي أَحْسَسْتُ بِالسَّكِّينِ يَنْغَرِزُ فِي
ظَهْرِي .

قَالَ : « أَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُجْذِفَ وَأُرَاقِبَكَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ . لِذَا يَجِبُ أَنْ
تُجْذِفَ بِقُوَّةٍ تَكْفِي لِتَحْرِيكِ الْقَارِبِ بِنَا نَحْنُ الْاِثْنَيْنِ . »

جَذَبْتُ الْمَجْدَافَيْنِ وَأَنَا أَفَكِّرُ فِيمَا يُمَكِّنُنِي أَنْ أَفْعَلَهُ . وَوَجَدْتُ أَنَّهُ مِنَ
الْحِكْمَةِ أَنْ أَفْعَلَ مَا يَطْلُبُهُ مِنِّي ، فَقَدْ كَانَ سِكِّينُهُ فِي ظَهْرِي ، لِذَا وَاصَلْتُ
التَّجْدِيفَ . وَعِنْدَمَا خَرَجْنَا إِلَى غُرْضِ الْبَحْرِ بَعِيدًا عَنِ الْبَحِيرَةِ ، أَصْبَحَ مِنَ
الصَّعْبِ عَلَيَّ السَّبَاحَةُ إِلَى الشَّاطِئِ . وَأَدَارَ الْإِشْبِيلِيُّ الْقَارِبَ نَحْوَ الشَّرْقِ
وَبَسَطَ شِرَاعًا .

الفصل الخامس عشر

شيطان البحر يتبعنا

هبت رياح قوية من الجنوب ، وكنا قد قطعنا مسافة لا بأس بها ذلك الصباح . وفي الظهر تناولنا قليلاً من كعك الذرة الذي كان إشبيلي قد أحضره ، ثم استسلمت للنوم .

استيقظت في المساء وسألت إشبيلي : « هل ترغب في النوم قليلاً وأوصل أنا التجديف ؟ »

أجاب : « كلا ، أنا لا أثق بك ، فربما لا أستيقظ على الإطلاق ، وإذا استيقظت فقد أجذك أدركت القارب لنبحر عائدين إلى لا باز . » ولكنه نام فعلاً ، وقد فتح إحدى عينيه واضعاً يده على السكين .

خفت شدة الرياح ، وعندما بزغ القمر رأيت حركة في البحر على بعد



رُبْعِ مِيلٍ خَلَفْنَا . لَمْ تَكُنْ مَوْجَةً ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ مَوْجَةً لِأَنَّ الْبَحْرَ كَانَ هَادِئًا تَمَامًا . كَانَ حَوْلَنَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ أَسْمَاكِ الْقَرَشِ ، لِذَا اعْتَقَدْتُ أَوَّلَ الْأَمْرِ أَنَّهَا ثَلَاثُهُمْ بَعْضُ الْأَسْمَاكِ هُنَاكَ . بَعْدَ ذَلِكَ شَاهَدْتُ الْحَرَكَةَ نَفْسَهَا مِنْ جَدِيدٍ ، وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ سَقَطَ ضَوْءُ الْقَمَرِ عَلَى مَا يُشْبِهُ جَنَاحِي شَيْطَانِ الْبَحْرِ وَهُمَا يَرْتَفِعَانِ وَيَخْفِضَانِ . كَانَ شَيْطَانُ الْبَحْرِ فِعْلًا .

كُنَّا قَدْ شَاهَدْنَا عَدَدًا مِنْ أَسْمَاكِ الْقَرَشِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ طَافِيَةً عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ تَسْتَمْتِعُ بِدَفْءِ الشَّمْسِ ، لِذَلِكَ لَمْ أَنْزِعْ عِنْدَمَا رَأَيْتُ إِحْدَاهَا تَسْبَحُ خَلْفَنَا وَاسْتَسَلَمْتُ لِلنَّوْمِ .

عِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ سَمِعْتُ أَصْوَاتًا خَافَتُهُ آتِيَةً مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ . هَلْ كُنْتُ أَخْلُمُ ؟ كَلَّا ! كَانَتْ أَصْوَاتًا حَقِيقِيَّةً ! فَقَدْ بَدَأَ وَاضِحًا فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ أَنَّ شَيْطَانَ الْبَحْرِ الْعِمْلَاقِ يَسْبَحُ عَلَى بُعْدِ ثَلَاثِينَ مِثْرًا فَقَطْ خَلْفَنَا .

قُلْتُ لِلْإِشْبِيلِيِّ : « أَنْظُرْ ! هُنَاكَ شَيْءٌ يَسْبَحُ خَلْفَنَا . »

قَالَ : « نَعَمْ ، لَيْتَهُ يَسْبَحُ أَمَامَنَا حَتَّى أُرْبُطَ فِيهِ حَبَلًا وَنَصِلَ بِسُرْعَةٍ إِلَى مَدِينَةِ غَوَايِمَاس . »

وَضَحِكُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي رَسَمَهَا فِي خَيَالِهِ ، أَمَّا أَنَا فَجَلَسْتُ سَاكِئًا أَنْظُرَ إِلَى شَيْطَانِ الْبَحْرِ وَهُوَ يَسْبَحُ خَلْفَنَا عَنْ قُرْبٍ . إِنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلِ أَوَّلِ اللَّيْلِ . كُنْتُ مُتَاكِدًا مِنْ ذَلِكَ . إِنَّهُ شَيْطَانُ الْبَحْرِ .

قَالَ الْإِشْبِيلِيُّ : « لَقَدْ شَمَّ رَائِحَةَ كَعْلِكَ الذَّرَّةَ . »

طَلَعَ النَّهَارُ ، وَظَلَّ شَيْطَانُ الْبَحْرِ يَسْبَحُ خَلْفَنَا . لَمْ يَقْتَرِبْ عَمَّا كَانَ مِنْ قَبْلِ فَلَمْ يَسْبَحْ أَسْرَعَ وَلَا أَبْطَأَ مِنَ الْقَارِبِ ، وَحَافِظَ عَلَى الْمَسَافَةِ الَّتِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ .

سَأَلْتُ الْإِشْبِيلِيَّ : « هَلْ تَتَذَكَّرُ أَوَّلَ يَوْمٍ كُنْتُ أَنَا فِيهِ عَلَى السَّفِينَةِ وَصِحْتُ أَنْتَ : (شَيْطَانُ الْبَحْرِ) وَخَافَ الْهِنْدِيُّ ؟ لَيْتَهُ كَانَ مَعَنَا حَتَّى يَرَى الشَّيْطَانَ الْعِمْلَاقَ . »

أَجَابَ الْإِشْبِيلِيُّ : « لَقَدْ شَاهَدْتُ كَثِيرًا مِنْ هَذَا السَّمَكِ ، وَلَكِنَّ هَذَا الشَّيْطَانَ هُوَ أَكْبَرُهُمْ عَلَى الْإِطْلَاقِ . لَا بُدَّ أَنَّهُ يَبْلُغُ سَبْعَةَ أَمْتَارٍ عَلَى امْتِدَادِ جَنَاحِيهِ ، وَيَزِنُ طُنَيْنِ تَقْرِيْبًا (أَلْفِي كِيلُو غَرَامِ) وَلَكِنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاكِ الضَّخْمَةَ أَسْمَاكَ صَدِيقَةٍ . لَقَدْ شَاهَدْتُهَا تَتَّبِعُ قَارِي طَوَالَ يَوْمٍ كَامِلٍ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَقْصِدْ أَيَّ ضَرَرٍ . إِنَّهَا بِالطَّبْعِ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقْتُلَكَ بِسُهُولَةٍ ، وَأَنْ تُحَطِّمَ قَارِبَكَ بِلَمْسَةٍ بَسِيطَةٍ إِنْ هِيَ أَرَادَتْ ، وَلَكِنَّهَا لَا تُرِيدُ . »

مَرَّتْ سَاعَةٌ سَبَحَ شَيْطَانُ الْبَحْرِ بَعْدَهَا أَمَامَنَا وَعِنْدَمَا مَرَّ بِالْقَارِبِ شَاهَدْتُ عَيْنِيهِ الصَّفَرَاوِينَ . وَبَدَأَ كَأَنَّهُمَا مُتَبَتِّئَتَانِ عَلَيَّ ، عَلَيَّ وَخُدَيَّ ، وَلَيْسَ عَلَيَّ الْإِشْبِيلِيَّ . رَأَيْتُ أَيْضًا فَمَهُ ، وَتَذَكَّرْتُ كَلِمَاتِ أُمِّي عِنْدَمَا كُنْتُ طِفْلًا : « إِنَّ لَهُ سَبْعَةَ صُفُوفٍ مِنَ الْأَسْنَانِ . » لَقَدْ كَانَتْ مُخْطِئَةً . لَيْسَتْ لَدَيْهِ آيَةُ أَسْنَانٍ فِي فَمِهِ الْعُلُويِّ ، وَإِنَّمَا لَدَيْهِ مَجْمُوعَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ الْأَسْنَانِ فِي فَمِهِ السُّفْلِيِّ ، وَلَمْ تَكُنْ كَالسَّكَكِينِ ، وَلَمْ تَكُنْ شَدِيدَةً الْبَيَاضِ .

اسْتَدَارَ شَيْطَانُ الْبَحْرِ وَعَادَ سَابِحًا فِي دَائِرَةٍ كَبِيرَةٍ حَوْلَنَا ، ثُمَّ ابْتَعَدَ عَنَّا

وَعَادَ مِنْ جَدِيدٍ ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَرَّةُ كَانَتْ دَائِرَتُهُ أَصْغَرَ وَقَذَفَتْ الْأَمْوَاجُ الَّتِي
أَثَارَهَا بِقَارِبِنَا إِلَى أَعْلَى وَإِلَى أَسْفَلَ .

قَالَ الْإِسْبِيلِيُّ : « لَقَدْ بَدَأْتُ أَضِيقُ بِصَدِيقِنَا ، وَإِذَا اقْتَرَبَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ،
سَأَسْتَحْدِمُ الرَّمْحَ . »

قُلْتُ فِي نَفْسِي : « مِنْ الْأَفْضَلِ لَكَ أَلَّا تُغْضِبَهُ . إِنَّ الرَّمْحَ سَيَكُونُ كَوَخْزَةٍ
دُبُوسٍ . إِنَّهُ لَيْسَ مُجَرَّدَ سَمَكَةٍ . إِنَّهُ شَيْطَانُ السَّمَكِ . »

فَكَرْتُ فِي ذَلِكَ وَلَكِنْ لَمْ أَتَكَلَّمْ ، فَقَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُ شَيْطَانُ الْبَحْرِ .
وَكَانَتْ عَيْنَاهُ الصَّفَرَاوَانِ مُبْتَسِمَتَيْنِ عَلَيَّ .

صَعُرَتِ الدَّوَائِرُ ، وَنَحْنُ فِي وَسْطِهَا ، نَحْنُ وَاللُّؤْلُؤَةُ ، وَيَنْبَغِي عَلَيَّ أَنْ
أَقُولَ أَنَا وَاللُّؤْلُؤَةُ . قَذَفَ بِالْقَارِبِ إِلَى أَعْلَى وَإِلَى أَسْفَلَ ، وَمِنْ جَانِبٍ إِلَى
جَانِبٍ . وَكُنَّا نَنْزَحُ الْمَاءَ مِنَ الْقَارِبِ بِقُبْعَتَيْنَا لِنَحُولَ دُونَ أَنْ يَغْرَقَ . وَعَلَى
بُعْدِ نَصْفِ مِيلٍ مِمَّا كَانَتْ هُنَاكَ جَزِيرَةٌ تُسَمَّى جَزِيرَةَ الْمَوْتَى . وَلَقَدْ سُمِّيَتْ
بِهَذَا الْأَسْمِ لِأَنَّ بَعْضَ الْهُنُودِ كَانُوا يُقِيمُونَ عَلَيْهَا ، وَكَانُوا يَقْتُلُونَ أَيَّ شَخْصٍ
يَنْزِلُ بِهَا .

قَالَ الْإِسْبِيلِيُّ : « سَنَذْهَبُ إِلَى الْجَزِيرَةِ . »

قُلْتُ : « نَعَمْ ، هَذِهِ هِيَ فُرْصَتُنَا الْأَفْضَلُ . »

بَدَأَ شَيْطَانُ الْبَحْرِ وَكَأَنَّهُ يَفْهَمُ مَا كُنَّا نَحْطُطُ لَهُ ، فَسَبَّحَ بَعِيدًا ثُمَّ اخْتَفَى
عَنِ الْأَنْظَارِ . وَهَكَذَا وَصَلْنَا إِلَى الْجَزِيرَةِ بِسَلَامٍ .

الفصل السادس عشر

جزيرة الموتى

كَانَتْ جَزِيرَةُ الْمَوْتَى ، مِثْلَ سَائِرِ جُزُرِ بَحْرِ فِيرْمِيلْيُونِ بِهَا خَلِيجٌ رَمْلِيٌّ
أَدْخَلْنَا الْقَارِبَ فِيهِ وَشَدَدْنَاهُ إِلَى الشَّاطِئِ ، وَصَعِدْنَا ثَلَاثًا صَغِيرًا ، وَالْقَيْنَا نَظْرَةً
عَلَى الْجَزِيرَةِ مِنْ فَوْقِهِ .

كَانَتْ جَزِيرَةٌ صَغِيرَةٌ خَالِيَةٌ مِنَ الْتَلَالِ الْكَبِيرَةِ ، وَكَانَ الْهُنُودُ يَعْيشُونَ
فَوْقَهَا فِي الْخَلَاءِ بِلَا أَكْوَاجٍ . وَرَأَيْنَا نِيرَانَهُمُ الْمُشْتَعِلَةَ فِي أَقْصَى الْجَنُوبِ وَقَدْ
الْتَفُّوا حَوْلَهَا ، وَاصْطَفَتْ زَوَارِقُهُمْ عَلَى الشَّاطِئِ .

لَمْ يَرْنَا أَحَدًا وَنَحْنُ نُبْجُرُ دَاخِلَ الْخَلِيجِ . وَقَلْبُنَا الْقَارِبَ كَيْ نُفْرِغَهُ مِنْ
الْمِيَاهِ ، ثُمَّ تَنَاوَلْنَا مَزِيدًا مِنْ كَعْكَ الدُّرَّةِ ، وَحَلَّ الظَّلَامُ .

قَالَ الْإِسْبِيلِيُّ : « سَوْفَ نَنْتَظِرُ سَاعَةً وَهَذَا يُعْطِي شَيْطَانَ الْبَحْرِ فُرْصَةً
لِيَجِدَ زَوْرَقًا آخَرَ يَتَّبَعُهُ . »

قُلْتُ : « نَسْتَطِيعُ أَنْ تَبْقَى سَاعَةً أَوْ يَوْمًا ، وَلَكِنَّهُ سَيَظِلُّ هُنَاكَ . »

سَأَلَنِي : « مَاذَا تُعْنِي ؟ »

أَجَبْتُ : « أُعْنِي أَنَّ ذَلِكَ الشَّيْءَ هُنَاكَ هُوَ شَيْطَانُ الْبَحْرِ . »

ضَحِكَ وَقَالَ : « أَنَا أَعْرِفُ أَنَّ الْهُنُودَ الْبَلَهَاءَ يَعْتَقِدُونَ فِي شَيْطَانِ الْبَحْرِ . »



وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ فِي الْمَدْرَسَةِ وَتَسْتَطِيعُ قِرَاءَةَ الْكُتُبِ . أَنْتَ أَحَدُ أَفْرَادِ أُسْرَةٍ
سَالَا زَارِ الْقَوِيَّةِ . يُدْهِشُنِي أَنَّكَ تُصَدِّقُ تِلْكَ الْقِصَّةَ الْخُرَافِيَّةَ .

قُلْتُ : « إِنِّي أَوْ مِنْ تَمَامًا أَنَّهُ شَيْطَانُ الْبَحْرِ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَنْتَظِرُ فِي الْبَحْرِ مِنْ
أَجْلِ اللَّوْلُوءَةِ ، وَسَوْفَ يَظَلُّ مُنْتَظَرًا حَتَّى يَحْصُلَ عَلَيْهَا . »

وَقَفَ وَنَظَرَ إِلَيَّ بِازْدِرَاءٍ حَيْثُ أَجْلَسُ ، وَقَالَ : « لَوْ أَنَا قَذَفْتُ بِاللَّوْلُوءَةِ إِلَى
الْبَحْرِ لَأَخَذَهَا الشَّيْطَانُ وَسَبَحَ بَعِيدًا ، تَرَكْنَا لِحَالِنَا . هَلْ هَذَا مَا تَعْتَقِدُهُ ؟ »

قُلْتُ : « نَعَمْ . »

أَدَارَ ظَهْرَهُ لِي وَسَارَ فِي الظَّلَامِ كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَّعِدَ عَنِّي إِلَى أَقْصَى مَا
يَسْتَطِيعُ

بَرَخَ الْقَمَرُ . وَسَمِعْتُ فِي اللَّيْلِ صَوْتَ الطُّيُورِ تُحَلِّقُ فِي الْهَوَاءِ : لَقَدْ أَخَافَهَا
شَيْءٌ مَا .

نَظَرْتُ إِلَى أَعْلَى فَشَاهَدْتُ رَجُلًا يَقِفُ عَلَى التَّلِّ وَمِنْ خَلْفِهِ السَّمَاءُ . قَفَزْتُ
مِنْ مَكَانِي ، وَلَمْ أَنَادِ إِلَّا شَبِيلِي وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « هَذِهِ فُرْصَةٌ لِلْهُرُوبِ .
سَأَسْأَلُ التَّلَّ وَأُخْبِرُ هَذَا الْهِنْدِيَّ بِسَبَبِ مَجِيئِي إِلَى الْجَزِيرَةِ وَأَطْلُبُ مَعُونَتَهُ .
سَوْفَ يَفْهَمُ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ شَيْطَانِ الْبَحْرِ . »

كَانَتْ خُطَّةٌ مَلِيشَةٌ بِالْأَخْطَارِ وَقَدْ تَنَجَّحَ . لَكِنَّ الْإِشْبِيلِيَّ رَأَى هُوَ أَيْضًا
الْهِنْدِيَّ فَصَاحَ : « هَيَّا ، لِنَرْحَلْ . »

جَاءَ هُنُودٌ آخَرُونَ وَانْضَمُّوا إِلَى الرَّجُلِ الْأَوَّلِ ، فَجَرَى الْإِشْبِيلِيَّ إِلَى الْقَارِبِ
وَعَدَلَهُ ، وَالتَّقَطَّ كُلُّ أُمَّتَيْنَا مِنْ فَوْقِ الرَّمَالِ وَوَضَعَهَا فِيهِ ثُمَّ صَاحَ بِي
« أَسْرِعْ ! »

مَشَيْتُ إِلَى الْقَارِبِ وَعَاوَنْتُهُ فِي دَفْعِهِ إِلَى أَلْمِيَاءِ . لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ مَكَانَ
اللَّوْلُوءَةِ وَتَسَاءَلْتُ فِي نَفْسِي : « هَلْ هِيَ فِي الْقَارِبِ ، أَمْ فِي جَبِيهِ ؟ »

سَأَلْنِي : « لَعَلَّكَ تَفْضِلُ الْبَقَاءَ ؟ الْهُنُودُ هُنَا يَحْفَرُونَ خُفْرَةً فِي الرَّمَالِ
وَيَضَعُونَ فِيهَا أَيَّ أَسِيرٍ يَحِثُّ لَا يَظْهَرُ مِنْهُ إِلَّا رَأْسُهُ فَقَطْ ، ثُمَّ يَتْرَكُونَ

الْحَيَوَانَاتِ تَنْهَشُ وَجْهَهُ . لَكِنْ رُبَّمَا تَفْضُلُ ذَلِكَ عَلَى شَيْطَانِ الْبَحْرِ ؟ »
كَانَ الْقَارِبُ فِي الْمَاءِ فَالْتَقَطَ الْإِشْبِيلِيُّ الْمَجْدَافَيْنِ قَائِلًا : « حَسَنًا ، أَتَذْهَبُ
أَمْ تَبْقَى ؟ »

كَانَ الْهِنُودُ يَهْبِطُونَ مِنْ فَوْقِ الْكَلِّ وَهُمْ يَصِيحُونَ بِعُضْبٍ ، فَتَزَلَّتْ إِلَى
الْقَارِبِ .

كَانَ الْقَمَرُ بَدْرًا ، وَكَانَ الْهَوَاءُ صَافِيًا وَالْبَحْرُ كَالْفِضَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ
أَيُّ أَثَرٍ لِشَيْطَانِ الْبَحْرِ . جَذَفْنَا مَعَ بَقُوَّةٍ خَشِيَّةٍ أَنْ يُسْرِعَ الْهِنُودُ إِلَى قَوَارِبِهِمْ
وَيَتَّبَعُونَا . وَظَلَلْنَا نَسْمَعُ صِيَاحَهُمْ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُحَاوِلُوا أَنْ
يَتَّبَعُونَا .

عِنْدَمَا ابْتَعَدْنَا عَنِ الْجَزِيرَةِ ، اشْتَدَّتِ الرِّيحُ فَرَفَعَ الْإِشْبِيلِيُّ الشُّرَاعَ ،
وَأُبْحَرْنَا فِي اتِّجَاهِ الشَّرْقِ .

الفصل السابع عشر

شَيْطَانُ الْبَحْرِ يَعُودُ

عِنْدَمَا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ كُنَّا قَدْ ابْتَعَدْنَا عَنْ جَزِيرَةِ الْمَوْتَى . كَانَ الْهَوَاءُ



سَاكِئًا وَالْبَحْرُ هَادِيًا ، وَخَيَّمَتْ طَبَقَةٌ رَقِيقَةً مِنَ الضَّبَابِ الْأَحْمَرِ فَوْقَنَا ،
وَلَكِنِّي لَمْ أُسْتَطِعْ رُؤْيَةَ شَيْطَانِ الْبَحْرِ .

مَرَّتْ سَاعَةٌ ، ثُمَّ أَرْتَفَعَتِ أَلْمِيَاهُ عَلَى بُعْدِ مِئَةِ مِثْرٍ خَلَفْنَا عَلَى هَيْئَةٍ نَلِّ ، وَمِنْ
وَسَطِ هَذَا الْتَلِّ بَرَزَ الشَّيْطَانُ .

فَقَرَعَ عَالِيًا فِي الْهَوَاءِ أَعْلَى مِنْ أَيِّ شَيْطَانٍ بَحْرٍ رَأَيْتُهُ يَقْفِزُ مِنْ قَبْلِ . إِرْتَفَعَ
لِدَرَجَةٍ أَنَّنِي رَأَيْتُ بَطْنَهُ الْأَبْيَضَ وَذَيْلَهُ الطَّوِيلَ . وَاسْتَمَرَّ هَكَذَا لَحْظَةً ثُمَّ هَبَطَ
وَارْتَفَعَ بِأَلْمَاءٍ مُجْدِنًا دَوِيًّا مُرْعِبًا .

قَالَ الْإِشْبِيلِيُّ : « إِنَّ صَدِيقَكَ يُرِينَا قُوَّتَهُ . »

تَعَجَّبْتُ كَيْفَ أَنَّهُ حَتَّى الْآنَ لَا يَعْرِفُ أَنَّ هَذَا هُوَ شَيْطَانُ الْبَحْرِ .

وَضَعَ الْإِشْبِيلِيُّ اللَّوْلُوَّةَ فِي مَكَانٍ أَمِينٍ بِمَوْحَرِ الْقَارِبِ ، ثُمَّ أَلْتَقَطَ الرُّمَحَ
قَائِلًا : « لَقَدْ قَتَلْتُ تِسْعَةً مِنْهُ . إِنَّ قَتْلَهُ لَيْسَ صَعْبًا ، إِذْ لَيْسَ لَدَيْهِ غِطَاءٌ سَمِيكَ
مِنَ الشَّحْمِ . إِنَّ قَتْلَهُ أَسْهَلُ مِنْ قَتْلِ أَضْحَمِ أَسْمَاكِ الْقَرَشِ - الْقَرَشُ الْأَشْهَبُ
الضَّحْمِ . »

غَاصَ شَيْطَانُ الْبَحْرِ فِي الْمَاءِ وَغَابَ عَنِ الْأَنْظَارِ حَتَّى مُتَّصِفِ النَّهَارِ ،
لَعَلَّهُ كَانَ يَسْتَبِجُ عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ خَلَفْنَا ، بَيْنَمَا كَانَ الْإِشْبِيلِيُّ يَحْكِي لِي كَيْفَ
أَنَّ قَتْلَهُ أَمْرٌ سَهْلٌ وَأَنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً .

رَأَيْتُ جَنَاحَيْهِ أَوَّلًا ، وَعِنْدَمَا مَرَّ بِالْقَارِبِ ، رَأَيْتُ عَيْنَيْهِ الصَّفْرَاوَيْنِ

تَدُورَانِ وَتَنْظُرَانِ إِلَيَّ كَمَا فَعَلْنَا مِنْ قَبْلُ . وَبَدَأَا وَكَأَنَّهُمَا يَقُولَانِ : « اللَّوْلُوَّةُ
مُلْكِي ، أَقْدَفُ بِهَا إِلَى الْبَحْرِ . إِنَّهَا لَمْ تَجْلُبْ لَكَ سِوَى الْمَتَاعِ ، وَلَنْ تَنْعَمَ
بِسَعَادَةٍ أَوْ رَاحَةٍ حَتَّى تُعِيدَهَا . »

بَدَأَ عَلَى الْإِشْبِيلِيِّ أَنَّهُ يَقْرَأُ أَفْكَارِي ، فَضَحِكَ . لَقَدْ أُتِقِنَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ
أَنَّنِي لَسْتُ سِوَى طِفْلِ أَبْلَهٍ - أَوْ رَجُلٍ فَقَدَ عَقْلَهُ .

سَبَحَ شَيْطَانُ الْبَحْرِ أَبْعَدَ مِنْ مَدَى الرُّمَحِ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ إِلَى الْأَمَامِ ثُمَّ عَادَ بِبُطْءٍ
فِي دَائِرَةٍ وَاسِعَةٍ . انْتَبَظَهُ الْإِشْبِيلِيُّ وَفِي يَدِهِ الرُّمَحُ الثَّقِيلُ . كَانَ عَلَيَّ أَنَّ أُحِبُّ
عَلَى يَدَيَّ وَرُكْبَتَيَّ طَوْلَ الْقَارِبِ حَتَّى أَصِلَ إِلَى اللَّوْلُوَّةِ ، وَسِيرَى الْإِشْبِيلِيِّ
تَحْرُكِي ؛ لِذَا قَرَّرْتُ أَنْ أَنْتَظِرَ حَتَّى يَقْتَرِبَ شَيْطَانُ الْبَحْرِ ، وَيُرْكَزَ الْإِشْبِيلِيُّ
عَيْنَيْهِ عَلَيْهِ .

نَظَرَ إِلَيَّ الْإِشْبِيلِيُّ قَائِلًا : « لَقَدْ بَدَأْتُ أَفْهَمُ بَعْضَ الْأُمُورِ . لَقَدْ أَخَذْتُ
الِّلْوْلُوَّةَ مِنَ الْمُتَحَفِ بَعْدَ أَنْ تَحَطَّمَتْ سُفُنُ أَبِيكَ فِي الْبَحْرِ ، ثُمَّ أَبْحَرْتُ طَوَالَ
الَّلَّيْلِ إِلَى الْبَحِيرَةِ حَيْثُ وَجَدْتُ اللَّوْلُوَّةَ لِتُعِيدَهَا إِلَى شَيْطَانِ الْبَحْرِ . هَلْ هَذَا
صَحِيحٌ ؟ » وَلَمْ أَجِبْهُ .

قَالَ : « حَسَنًا ! سَأَقُولُ لَكَ شَيْئًا لَا يَعْرِفُهُ سِوَايَ . فِي هَذِهِ السَّاعَةِ كَانَ مِنْ
الْمُمْكِنِ أَنْ تُكَوْنَ سُفُنُ أَبِيكَ مُبْجَرَةً فِي أَمَانٍ ، أَوْ رَاسِيَةً فِي الْخَلِيجِ سَالِمَةً ،
وَكَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ أَبُوكَ جَالِسًا فِي بَيْتِهِ سَالِمًا يَتَنَاوَلُ عَشَاءَهُ . »

غَضِبْتُ أَشَدَّ الْغَضَبِ ، وَلَكِنِّي جَلَسْتُ هَادِيًا لَا أَتَحَرَّكُ ، إِلَّا أَنَّهُ رَأَى

ذَلِكَ عَلَى وَجْهِهِ ، فَقَالَ : « لَا تَغْضَبْ . أُرِيدُ فَقَطُّ أَنْ أُخْبِرَكَ لِمَاذَا تَحْطُمَتِ
السُّفُنُ عَلَى الصُّخُورِ . لَقَدْ كَانَتْ سُفُنًا مُمْتَازَةً - لَا يُوجَدُ أَحْسَنُ مِنْهَا ،
وَكَانَ أَبُوكَ رَبًّا مَاهِرًا . وَلَمْ تَكُنِ الْعَاصِفَةُ أَسْوَأَ مِنْ عَوَاصِفَ كَثِيرَةٍ سَابِقَةٍ .
إِذَا لِمَاذَا حَدَّثَ مَا حَدَّثَ ؟ أَسْأَلُ لِمَاذَا ؟ »

قُلْتُ : « أَنَا لَا أَسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ . »

قَالَ : « لِكَيْنِي سَأَخْبِرَكَ لِمَاذَا . بَيْنَمَا أَرَأَيْتُ أَنَا شَيْطَانُ الْبَحْرِ قَدْ تَأْخُذُ
أَنْتَ اللَّوْلُوَّةَ وَتَقْدِفُ بِهَا إِلَى الْبَحْرِ . حِينَئِذٍ لَا أَمْلِكُ إِلَّا أَنْ أَقْتُلَكَ . لَمْ يَكُنْ
شَيْطَانُ الْبَحْرِ السَّبَبَ فِي مَوْتِ أَبِيكَ . »

كَانَ شَيْطَانُ الْبَحْرِ لَا يَزَالُ بَعِيدًا عَنَّا ، وَلَمْ يَبْدُ أَنَّهُ فِي عَجَلَةٍ لِلْإِنْقِضَا
عَلَيْنَا . لَكِنَّ الْإِشْبِيلِيَّ رَبَطَ طَرَفًا وَاحِدًا مِنْ حَبْلِ الرُّمَحِ ، وَوَضَعَ بَقِيَّةَ الْحَبْلِ
عَلَى شَكْلِ دَائِرَةٍ عِنْدَ قَدَمَيْهِ ، وَاسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ قَائِلًا : « عِنْدَمَا كَانَتِ الْعَاصِفَةُ
تَتَجَمَّعُ قُلْتُ لِأَبِيكَ : لَا بُدَّ أَنْ نَعُودَ وَنَدْخُلَ خَلِيجَ لَاسْ أَنْيِمَاس . فَضَحِكَ مِنْ
كَلَامِي وَقَالَ : إِنَّ الْرِّيَّاحَ فِي صَالِحِنَا ، وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَصِلَ إِلَى جَزِيرَةِ سِيرَالْفُو
قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَنَا الْعَاصِفَةُ . هَذَا مَا قَرَّرَهُ هُوَ ، وَكَانَ قَرَارُهُ خَاطِئًا . لَقَدْ
أَصْدَرَ هَذَا الْقَرَارَ الْخَاطِئَ بِسَبَبِ اللَّوْلُوَّةِ لِأَنَّهُ قَدَّمَهَا لِمُتَحِفِ الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ
مُتَأَكِّدًا أَنَّهُ سَيَنْجُو مِنْ أَيَّةِ عَاصِفَةٍ . هُوَ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرَى
اللَّوْلُوَّةَ فِي مُخِيلَتِهِ . عَرَفْتُ ذَلِكَ مِنَ الْأُسْلُوبِ الَّذِي كَانَ يَتَكَلَّمُ بِهِ وَالطَّرِيقَةِ
الَّتِي كَانَ يَنْظُرُ بِهَا . »

رَفَعَ الْإِشْبِيلِيَّ رَأْسَهُ وَتَطَلَّعَ إِلَى السَّمَاءِ وَرَفَعَ يَدَهُ كَيْ يُرِيَنِي كَيْفَ كَانَ أَبِي
يَبْدُو . هَكَذَا بَدَأَ أَبِي فِي غُرْفَةٍ مَنَزِلُنَا عِنْدَمَا أُعْطِيَ اللَّوْلُوَّةَ إِلَى الْعَمِّ غَالَارْدُو ،
هَكَذَا بَدَأَ أَبِي عِنْدَمَا قَالَ لِأُمِّي : « سَيَشْمَلُ اللَّهُ أُسْرَتَنَا بِرِعَائِيهِ آلَانَ وَإِلَى
الْأَبَدِ . »

وَاصَلَ الْإِشْبِيلِيَّ حَدِيثَهُ قَائِلًا : « كُنْتُ أُدْرِكُ مِنْ أُسْلُوبِهِ فِي الْكَلَامِ أَنَّهُ يُدْرِكُ
أَنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ بِيَدِهِ . »

رَفَعَ الرُّمَحَ كَأَنَّهُ يَسْتَعِدُّ لِرَمِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : « إِذَا كَانَ لَكَ أَنْ تُفَكِّرَ مِنْ جَدِيدٍ
فِي سَرِقَةِ اللَّوْلُوَّةِ مِنَ الْمُتَحِفِ هَلْ تَفْعَلُ ذَلِكَ ؟ طَبْعًا لَا ! لَنْ تُسْرِقَهَا ، خُصُوصًا
بَعْدَ أَنْ عَرَفْتَ لِمَاذَا تَحْطُمَتِ السُّفُنُ . كَذَلِكَ لَنْ تُسْرِقَهَا مِنْ صَدِيقِكَ الطَّيِّبِ
غَاسْبِرِ رُوزِيز ، الْإِشْبِيلِيَّ - أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

إِنْتَظَرَ أَنْ أَجِيبَ وَلَكِنِّي بَقِيتُ صَامِتًا . وَجَلَسْتُ أَرَأَيْتُ شَيْطَانُ الْبَحْرِ
يَسْبَحُ خَلْفَنَا . كُنْتُ قَدْ قَرَّرْتُ مَا سَأَفْعَلُهُ سَوَاءً أَقْتُلَ شَيْطَانُ الْبَحْرِ أَوْ لَمْ
يَقْتُلْهُ - قَرَّرْتُ مَا سَأَفْعَلُهُ .

سَبَحَ شَيْطَانُ الْبَحْرِ مَرَّةً أُخْرَى فِي دَائِرَةٍ كَبِيرَةٍ أَبْعَدَ مِنْ مَدَى الرُّمَحِ ، ثُمَّ عَادَ وَاقْتَرَبَ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ . وَكَانَتْ عَيْنَاهُ الصُّفْرَاوَانِ مُشْتَتِنَتَيْنِ عَلَى الْإِسْبِيلِيِّ وَلَيْسَ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ ارَادَ أَنْ يَقُولَ : « يَاكَ أَنْ تَجْرُو عَلَى رَمِي بِهِذَا الشَّيْءِ الَّذِي فِي يَدِكَ ! »

أَطْلَقَ الْإِسْبِيلِيُّ صَيْحَةً عَالِيَةً ، وَسَمِعَتْ الرُّمَحُ يَنْطَلِقُ مِنْ يَدِهِ يَتَّبِعُهُ الْحَبْلُ . وَغَلِقَ الْحَبْلُ بِقَدَمِي وَقَذَفَ بِي إِلَى جَانِبِ الْقَارِبِ ، وَاعْتَقَدْتُ أَنَّهُ سَوْفَ يَقَذِفُ بِي إِلَى الْبَحْرِ ، وَلَكِنْ بِطَرِيقَةٍ مَا انْفَكَّ الْحَبْلُ مِنْ قَدَمِي . وَرَأَيْتُ ، وَأَنَا رَاقِدٌ عَلَى جَانِبِ الْقَارِبِ ، الرُّمَحَ الطَّوِيلَ يَرْتَفِعُ إِلَى أَعْلَى ثُمَّ يَهْوِي لِيَنْعَرِزَ فِي جِسْمِ شَيْطَانِ الْبَحْرِ بَيْنَ جَنَاحَيْهِ . وَعِنْدَئِذٍ انْجَذَبَ حَبْلُ الرُّمَحِ بِعُنْفٍ فَوَثَبَ الْقَارِبُ إِلَى أَعْلَى ثُمَّ عَادَ إِلَى سَطْحِ الْمَاءِ . وَانْجَذَبَ الْحَبْلُ مَرَّةً أُخْرَى فَانْدَفَعَ الْقَارِبُ إِلَى الْأَمَامِ نَحْوَ الشَّرْقِ .

قَالَ الْإِسْبِيلِيُّ : « إِنَّ صَدِيقَكَ يَأْخُذُنَا فِي الْآتِجَاهِ الصَّحِيحِ ، وَإِذَا سِرْنَا بِهِذِهِ السَّرْعَةِ فَسَوْفَ نَصِلُ إِلَى غَوَايِمَاسٍ فِي سَاعَةٍ مُبَكَّرَةٍ مِنَ الْغَدِ . »

لَكِنَّ شَيْطَانَ الْبَحْرِ سَبَحَ نَحْوَ الشَّرْقِ مَسَافَةً قَصِيرَةً قَبْلَ أَنْ يَسْتَدِيرَ وَيَتَّجِهَ إِلَى الْغَرْبِ . كَانَ يَتَحَرَّكُ بِبُطْءٍ فَلَمْ تَتَسَرَّبْ أَلْمِيَاهُ إِلَى الْقَارِبِ ، وَكَانَ يَسْبَحُ فِي خَطٍّ مُسْتَقِيمٍ . قَالَ الْإِسْبِيلِيُّ : « إِنَّ صَدِيقَكَ يَسِيرُ فِي اتِّجَاهِ خَاطِئِي ، وَلَكِنْ

انْقَضَى الصَّبَاحُ ، وَحُلَّ الظُّهْرُ ، وَمَا زَالَ شَيْطَانُ الْبَحْرِ يَسْبَحُ بِبُطْءٍ فِي اتِّجَاهِ الْغَرْبِ .

ذَهَبَ الْإِسْبِيلِيُّ إِلَى مُقَدِّمَةِ الْقَارِبِ وَنَظَرَ إِلَى الرُّمَحِ وَقَدْ انْعَرَزَ فِي ظَهْرِ شَيْطَانِ الْبَحْرِ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ ، وَكُنْتُ أَسْأَلُ : « هَلْ أَدْرَكَ أَنَّ هَذَا هُوَ شَيْطَانُ الْبَحْرِ وَلَيْسَ سَمَكَةً مِنَ الْأَسْمَاكَ الَّتِي لَا يَخْشَاهَا ؟ »

وَقَفَ الْإِسْبِيلِيُّ وَاسْتَلَّ سِكِّينَهُ الطَّوِيلَ ، وَاعْتَقَدْتُ أَنَّهُ يَنْوِي قَطْعَ الْحَبْلِ الَّذِي يَرْتَبِطُ بِالشَّيْطَانِ . رُبَّمَا فَكَّرَ فِي ذَلِكَ فَعَلًا لِحُظَّةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَكِنَّهُ عَادَ وَقَالَ : « لَا ! لَا ! لَا ! » وَأَعَادَ سِكِّينَهُ ، وَبَدَأَ يَجْذِبُ الْحَبْلَ جَانِبًا وَبِسُرْعَةٍ .

انْدَفَعَ الْقَارِبُ إِلَى الْأَمَامِ ، وَاسْتَمَرَّ شَيْطَانُ الْبَحْرِ يَسْبَحُ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ مِنْ قَبْلُ . وَأَخِيرًا اقْتَرَبْنَا مِنْهُ بِحَيْثُ كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَضَعَّ يَدِي عَلَى ذَلِيلِهِ .

رَبَطَ الْإِسْبِيلِيُّ الْحَبْلَ فِي مُقَدِّمَةِ الْقَارِبِ ، وَخَلَعَ قُبْعَتَهُ ثُمَّ أَمْسَكَ سِكِّينَهُ وَأَخَذَ نَفْسًا عَمِيقًا ثُمَّ زَفَرَهُ ، وَكَرَّرَ ذَلِكَ مَرَّةً ثَانِيَةً وَثَالِثَةً ، كَمَا لَوْ كَانَ يَسْتَعِدُّ لِعَوَصَةٍ طَوِيلَةٍ .

قُلْتُ فِي نَفْسِي : « لَقَدْ قَرَّرَ أَنْ يَقْتُلَ شَيْطَانُ الْبَحْرِ مَهُمَا اسْتَعْرِقَ ذَلِكَ مِنْ وَقْتٍ ، وَمَهُمَا كَانَ الثَّمَنُ . إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ حَتَّى يُثَبِّتَ أَنَّهُ هُوَ - غَاسِبِرُ رُويز - الْإِسْبِيلِيُّ ، أَشْجَعُ مِنْ رَامُونِ سَالَا زَارِ . »

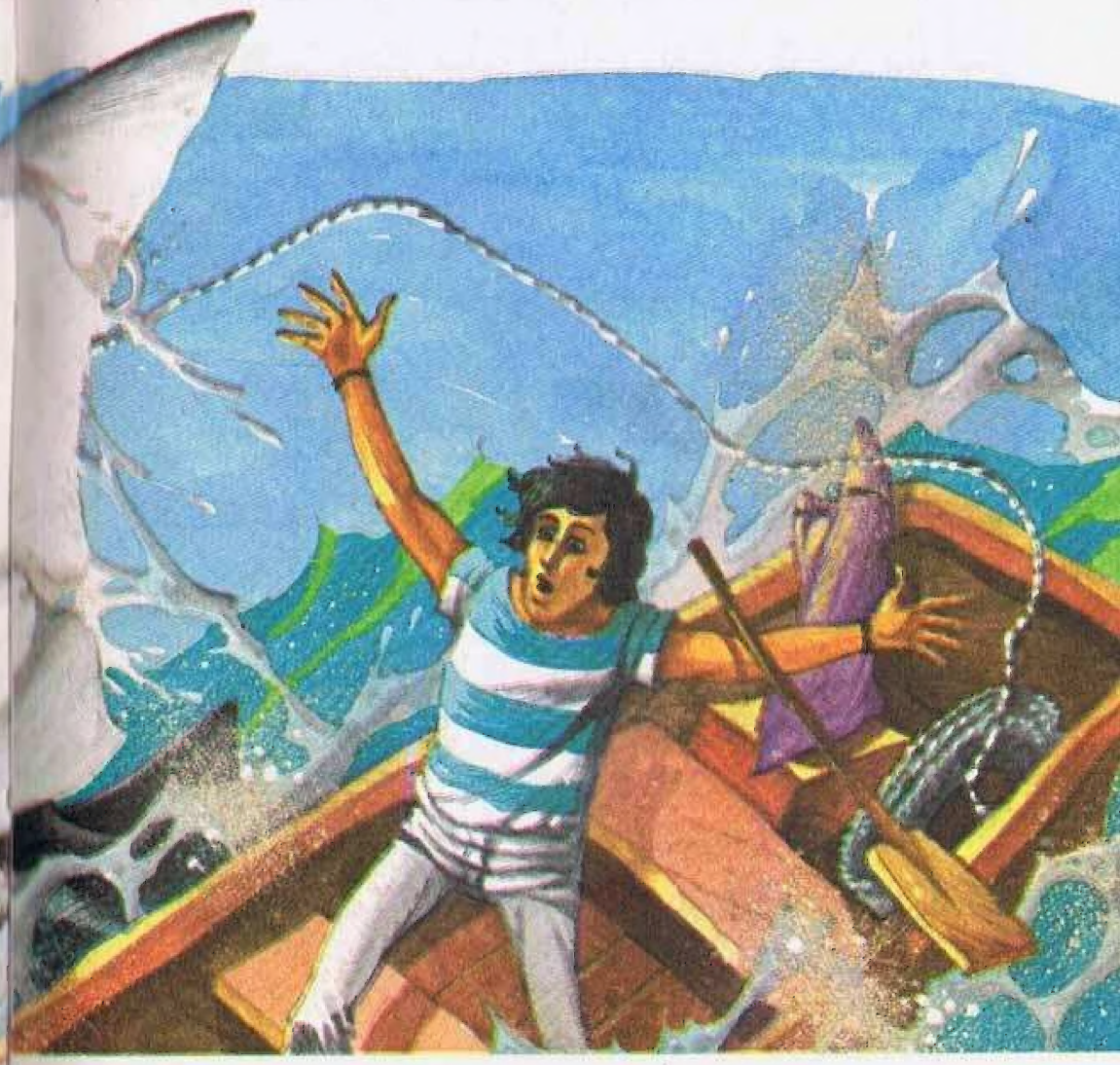
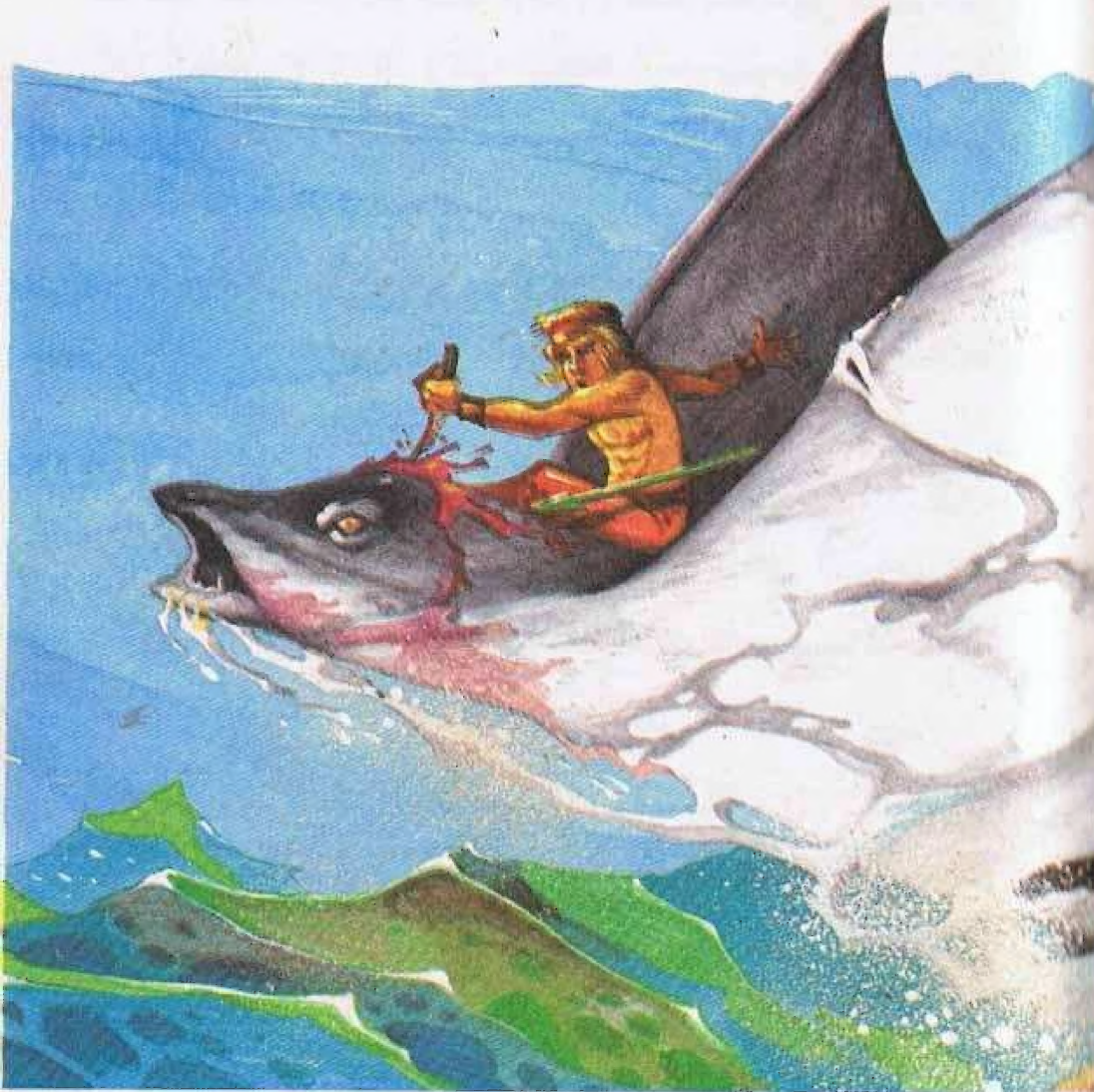
نَهَضْتُ وَاقِفًا وَأَمْسَكْتُ سِكِّينِي بِيَدِي وَصِيحْتُ : « سَنَقْتُلُهُ مَعًا . »

رُكْبَتَيْهِ وَتَقَدَّمَ نَحْوَ الرُّمَحِ ثُمَّ أُمْسَكَهُ بِيَدِهِ وَأُمْسَكَ السَّكِينِ بِيَدِهِ الْأُخْرَى . كَانَ
يَبْدُو أَنَّ شَيْطَانَ الْبَحْرِ لَمْ يَشْعُرْ وَلَمْ يُدْرِكْ مَا حَدَثَ ، اسْتَمَرَّ يَسْبَحُ وَنِصْفُ
جِسْمِهِ خَارِجَ الْمَاءِ وَنِصْفُهُ الْآخَرُ غَاطِسٌ دُونَ أَيِّ تَغْيِيرٍ .

أَعْمَدَ الْإِشْبِيلِيُّ سِكِينَهُ بِكُلِّ قُوَّتِهِ فِي جِسْمِ شَيْطَانَ الْبَحْرِ ، أَسْفَلَ الرَّأْسِ
تَمَامًا . فَقَفَزَ الشَّيْطَانُ إِلَى أَعْلَى حَتَّى إِنِّي رَأَيْتُ ذَنَبَهُ قَبْلَ أَنْ يَطْعَنَهُ الْإِشْبِيلِيُّ

نَظَرَ الْإِشْبِيلِيُّ إِلَى سِكِينِي وَضَحَكَ قَائِلًا : « بِهَذَا السَّكِينِ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ
تَقْتُلَ جَدَّتَهُ . اجْلِسْ وَتَشَبَّثْ بِجَانِبِ الْقَارِبِ . لَوْ بَدَأْتَ السَّمَكَةَ تَغْوَصُ
فَاقْطَعِ الْحَبْلَ حَتَّى لَا تَغْوَصَ أَنْتَ وَالْقَارِبُ مَعَهَا ، وَتَذْكُرُ بِاصْدِيقِي ، لَا
تَلْمِزُ اللَّوْلُوَّةَ . »

عِنْدَئِذٍ قَفَزَ الْإِشْبِيلِيُّ وَهَبَطَ عَلَى ظَهْرِ شَيْطَانَ الْبَحْرِ الْعَرِيزِ . هَبَطَ عَلَى



الفصل التاسع عشر

العودة إلى البيت

كانت المدينة نائمة عندما دخلت الخليج ، ولكن يبدو أن الطيور كانت تجس بقرب شروق الشمس .

جذبت القارب فوق الرمال ، ثم سرت في الشوارع يهدوء واتجهت نحو المتحف . كان الباب مواربا ، فدفعته دون أن يحدث صريرا ودلفت إلى الداخل . لم أر أحدا هناك ، ولكني رأيت إعلانا كبيرا :
« مكافأة ألف بيزو لأي فرد يقبض على اللص الذي سرق اللؤلؤة . »

أخذت ورقة الإعلان ووضعتها في جيبتي ، وأعدت اللؤلؤة إلى مكانها . وتذكرت الإشبيلي ، وتذكرت شيطان البحر ، هذا الكائن الجميل والمخيف الذي لم يشهده حقيقة سوى اثنين ، أحدهما فقط لا يزال حيا . خرجت إلى شرفة المتحف ، وكانت تطل على المدينة ، فرأيت النساء في طريقهن لجلب المياه ، وقد حملن الجرار على رؤوسهن ، وكانت النيران مشتعلة في البيوت لطهي طعام الإفطار .

غادرت المتحف عائدا إلى البيت ، وقلبي ينبض بشدة ، وشعرت أنني في هذا اليوم أصبحت رجلا . في هذا اليوم فقط وليس في اليوم الذي أصبحت فيه شريكا لأبي ، ولا في اليوم الذي وجدت فيه لؤلؤة السماء ، هذا هو اليوم الذي صرت فيه رجلا .

طعنة ثانية . وكانت الأمواج الصغيرة التي تغطي ظهره ممتزجة بدمائه . وضرب الماء بذيله وابتعث من جوفه صوت عميق ، ورفع جناحيه على ظهره كما لو كان يريد أن يريح بهما الإشبيلي . ثم غاص فجذب الحبل وراهه واندفع القارب إلى الأمام ، وسقط كل طعامنا في السماء .

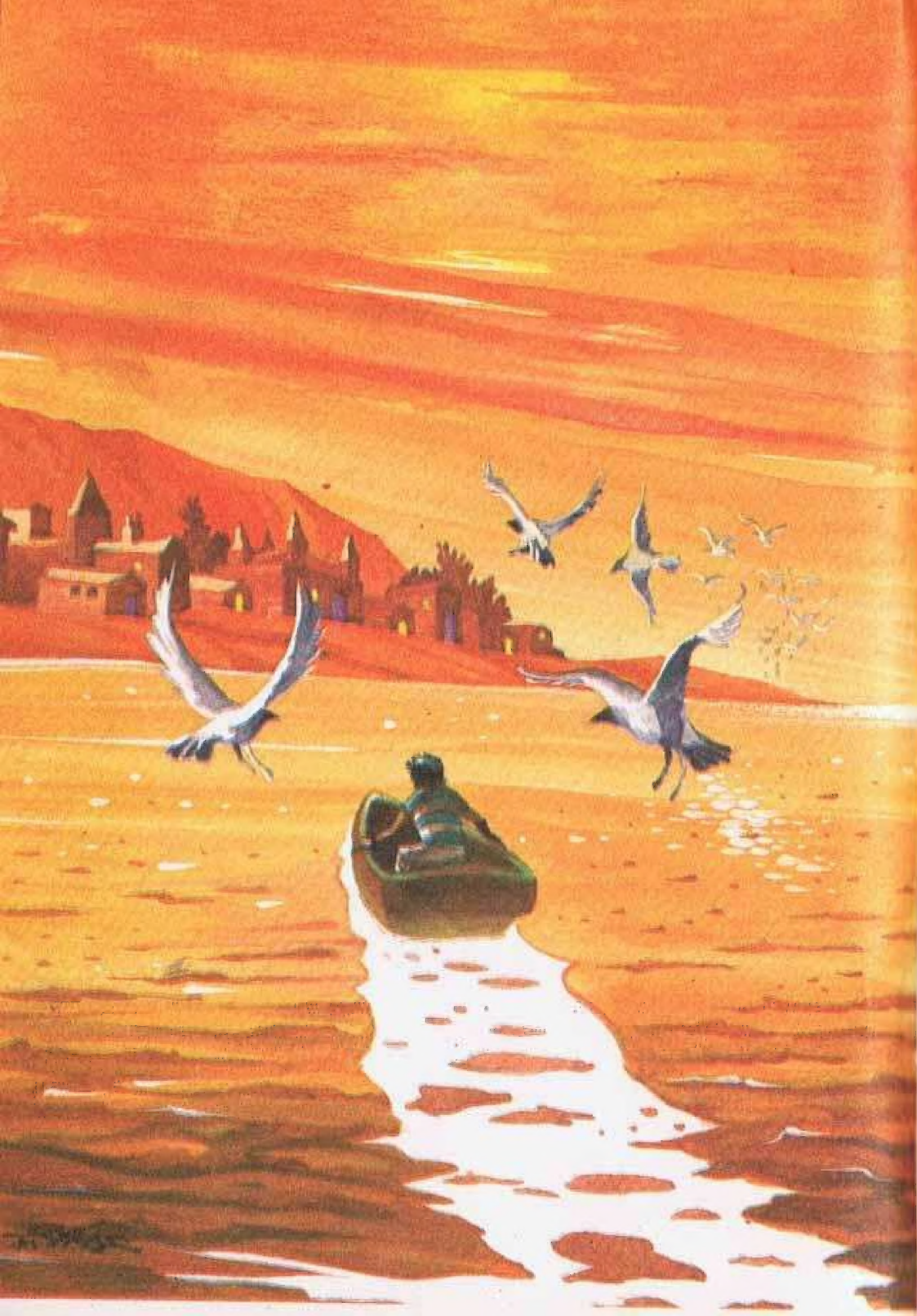
لم أجد فرصة أقطع فيها الحبل قبل أن يحتفي شيطان البحر عن الأنظار ، فغاصت مقدمة القارب وغطتها موجة . وعندما بدأنا نغوص انقطع الحبل . كان الإشبيلي جاثيا على ركبتيه ممسكا بالرمح بيديه ، ربما ليغرزهُ أكثر وأكثر . ولكن طرف الحبل المقطوع اندفع نحوه والتف حوله عدة مرات وقبده حتى أصبح لا يستطيع الحركة .

لم ينطق الإشبيلي بكلمة ، ولم يطلق صرخة . كان ظهره مواجهًا لي ، فشاهدت عليه الصور المرسومة عليه باللونين الأحمر والأخضر . وغطس الإشبيلي وهو لا يزال ممسكا بالرمح .

أفرغت القارب من الماء ، واستعدت المجذافين من البحر ، وكنا على مقربة من القارب . وجدفت جيئة وذهابا في المكان الذي غطس فيه الإشبيلي . ولم أر سوى بقع من الدماء . أما هو فقد هبط مع شيطان البحر إلى القاع . وكانت هذه هي نهاية غاسبر روير .

عند غروب الشمس بسطت الشراع واتجهت نحو لاباز ، ثم فكرت في اللؤلؤة . لقد كانت في مؤخر القارب حيث تركها الإشبيلي . وكانت الشيء الوحيد الذي لم يطرح في البحر .

فِي الطَّرِيقِ إِلَى الْبَيْتِ فَكَثُرَتْ فِي قِصَّةِ أُرْوِيهَا لَوَالِدَتِي ، فَهِيَ لَنْ تُصَدِّقَ مَا
حَدَّثَ - نَمَامًا كَمَا كُنْتُ لَا أُصَدِّقُ قِصَّتَهَا الَّتِي رَوَتْهَا لِي فِي الْمَاضِي الْبَعِيدِ
عَنْ شَيْطَانِ الْبَحْرِ !



المغامرات المثيرة

- ١ - مغامرة في الأدغال
- ٢ - مغامرة في الفضاء
- ٣ - مغامرة أسيرين
- ٤ - مغامرة في الجزيرة الخضراء
- ٥ - مغامرة على الشاطئ
- ٦ - الجاسوس الطائر
- ٧ - لصوص الطريق
- ٨ - حمد الفواص الشجاع
- ٩ - اللسان الغبيان
- ١٠ - مطاردة لصوص السيارات
- ١١ - مغامرات السندباد البحري
- ١٢ - لعبة خطيرة
- ١٣ - الحشرة الذهبية وقصص أخرى
- ١٤ - اللؤلؤة السوداء
- ١٥ - سر الجزيرة



مَكْتَبَةُ لُبْنَان

سَاحَةُ رِيَّاضِ الصَّلَح - بَیروت

رقم مرجع كميونتر 01 C 198 214